دوستويفسكي

# قلب ضعيف

ترجمة : سامي الدروبي



المركز الثقافي العربي





مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

**قام بالتحويل لهذا الكتاب:**



# كلمه مهمة:

**هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.**
**وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.**

**مع تحيات:**

**فريق - متميزون-**

**انضم الى الجروب**

**انضم الى القناة**

# قلب ضعيف

## قصة مترجمة (١٨٤٦)..

الكاتب: ديستويفسكي

ترجمة: سامي الدروبي

# عن هذا الكتاب..

قلب ضعيف ((Slaboē Serotsē، نُشرت هذه القصة في حوليات «الوطن»، المجلد 56، في شهر شباط (فبراير) 1946.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



# تقديم: بقلم الدكتور سامي الدروبي

هذا بطل آخر من صغار الموظفين، شاب يفيض مزايا وخيرًا ومحبة، راضٍ عن مصيره، رغم أن راتبه لا يزيد عن خمسة وعشرين روبلًا في الشهر. إن رئيسه، جوليان ماستاكوفتش يستغله، عاهدًا إليه بأعمال إضافية لا يدفع له أجرها خلال أربعة أشهر. لكن فاسيا ينهض بالعبء في جد واجتهاد وحماسة حتى إذا كافأه رئيسه بخمسين روبلًا فاض قلب الفتى شعورًا بالشكر والامتنان. والفتى سعيد، لأن له صديقًا عزيزًا عليه هو أركادي، ولأنه خطب فتاة يحبها حب العبادة، ولأنه ينعم بالحظوة لدى رئيسه. ولكن «قلبه الضعيف» ينوء بحمل كل هذه السعادة. لقد أهمل إنجاز العمل الذي عهد به إليه رئيسه، ولأنه قضى أوقات فراغه كلها عند خطيبته فها هو ذا يشعر من ذلك بأنه آثم في حق رئيسه، وها هو ذا يستولي عليه الجنون شيئًا بعد شيئ فيهرب من العمل الذي أصبح لا يطيق إنجازه، ويهرب من الحب الذي يرى أنه لا يستحقه، ويهرب من الشعور بالإثم الذي يمضّه ويرهقه أشد الإرهاق. وما أروع المشهد الذي يصوِّره دوستويفسكي حين يرينا الفتى المسكين وقد استولى عليه جنونه، فهو يُجري ريشته سريعة على الورق بغير حبر، ويقلّب الأوراق واحدة بعد أخرى، بيضاء لم يخطّ عليها سطرًا... ظانًّا أنه يُعجِّل قيامه بالعمل محاولًا إنجازه في الموعد المضروب لتقديمه إلى رئيسه. إنه مشهد مؤثر يكوي النفس حزنًا.

لقد ضخَّم الفتى المسكين خطيئة تقصيره تضخيمًا شديدًا، فأحس في إطار النظام القاسي الذي كان يسود عهد نيقولا الأول، أنه يرتكب جريمة التمرد وعدم الخضوع للرؤساء، وتوقع أن ينزل فيه العقاب الذي ينزل في المجرمين السياسيين، وهو إدخال المجرم في الجيش جنديًا بسيطًا لسنوات طويلة، ترى ألا يمكن أن يُقال إن دوستويفسكي، حين صوَّر هذا الفتى الحالم الذي انتهى إلى الجنون، كان يعبّر عن مخاوفه من الوقوع في هوة الجنون، وعن إحساسه بأنه سيعاقب هو أيضًا بالنفي والجندية لسنين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



صديقان شابان، موظفان في إدارة واحدة، كانا يقيمان معًا في الطابق الثالث من إحدى العمارات، أحدهما اسمه أركادي إيفانوفتش نيفيديفتش والثاني اسمه فاسيا شومكوف... إن كاتب هذه القصة يشعر طبعًا أن عليه أن يشرح للقارئ لماذا كانت إحدى شخصيتيه تسمى باسمها الكامل، بينما لا يطلق على الشخصية الثانية إلا اسم تصغير، وهو يشعر أن عليه أن يفعل ذلك حتى يتحاشى على الأقل أن يؤخذ عليه أنه يتصرف تصرفًا غير لائق، وسوف يكون عليه، في هذه الحالة، أن يعيِّن لكل شخصية من هاتين الشخصيتين رتبتها، ثم سنها، ولقبها، ووضعها، وحتى طبعها...

ولكن كاتب هذه القصة يسمح لنفسه بأن يدخل في الأحداث رأسًا (وهذا يدل طبعًا في نظر بعض الناس على أنانية مفرطة)، فها هو ذا بعد هذا التمهيد يبدأ قصته، وتلك طريقة يعمد إليها كثير من الكتاب على كل حال.

عشية عيد رأس السنة، عاد شومكوف إلى بيته في نحو الساعة السادسة من المساء. فاستيقظ أركادي الذي كان راقدًا على سريره ونظر إلى صديقه من خلال عينيه نصف المغمضتين، فرأى أنه مرتدٍ أحسن حلة، وأنه لابس قميصًا نظيفًا غاية النظافة. حيره هذا الأمر طبعًا، وتساءل: «ما لفاسيا مهندَما هذا الهندام...». ولكنه تذكر أن صاحبه لم يتناول غداءه اليوم في المنزل. وفي أثناء ذلك أشعل شومكوف شمعة، فأدرك أركادي إيفانوفتش أن صاحبه يتهيأ لإيقاظه من نومه.

وها هو ذا يتنحنح فعلًا عدة مرات، ويدور في الغرفة دورتين، ثم يُسقط من يده - عرَضًا - غليونه الذي كان قد حشاه بالتبغ، يسقطه في ركن قرب المدفأة. ضحك أركادي إيفانوفتش بينه وبين نفسه. وقال:

- طالت هذه التمثيلية الهزلية يا فاسيا!

- ألست نائمًا يا أركاشا؟

- لا أستطيع أن أؤكد ذلك، ولكن يخيل إليَّ أن لا.

- يومك سعيد يا أركاشا يا صديقي العزيز... إيه يا رفيقي الطيب، إيه يا رفيقي الشهم... إنك لا تستطيع أن تحزر ما أريد أن أقوله لك.

- لذلك أجهله كل الجهل. ولكن هلا اقتربت قليلًا!

وكأنَّ فاسيا لم يكن ينتظر إلّا أن يُدعى إلى الاقتراب، فسرعان ما اقترب من صاحبه دون أن يسيء الظن في أركادي إيفانوفتش. ولكن أركادي ما يلبث أن يمسكه من رسغيه بحركة محكمة، ثم يفتله فيرميه على السرير ويبقيه على هذا الوضع المزعج متبهجًا بذلك ضاحكًا منه. وهتف أركادي يقول:

- ها قد أمسكتك... ها قد قبضت عليك..

- أركاشا، أركاشا. ما هذا الذي تفعله؟ اتركني.. أرجوك.. لسوف تفسد ردائي!.

- وما قيمة أن يفسد رداؤك؟ وما حاجتك إلى هذا الرداء؟ لماذا كنت مطمئنًا هذا الإطمئنان كله فأتحت لي أن أقبض عليك؟ قل لي: أين كنت؟ وأين تغديت؟

- أركاشا، اتركني.. أرجوك.. أناشدك الله.

- أين تغديت؟

- ولكن ذلك بعينه هو ما أريد أن أقصه عليك!

- هيا قص إذًا!

- ولكن اتركني أولًا!

- لا.. لن أتركك قبل أن تقص عليَّ كل شيء!

- أركاشا، ألا تحسّ أن هذا مستحيل، مستحيل تمامًا! هنالك أمور...

كذلك صاح فاسيا، الذي لم يكن قوي الجسم، محاولًا أن يخلص نفسه من بين يدي خصمه القادرتين دون أن يظفر بطائل.

- أي أمور؟

- هناك أمور لا يمكن أن يتحدث فيها المرء وهو في هذا الوضع وإلا كان يفقد كل كرامة.. لعلك تضحك من هذا الكلام.. ولكن الأمر الذي سأحدثك فيه هام جدًا...

- دعني من الأمور الهامة!.. ما عساك مخترعًا أيضًا؟ أفضل أن تروي لي روايةً مضحكة. أما الأمور الهامة فلست أحرص عليها. وإلا فأين الصداقة؟ قل لي ماذا تفعل بالصداقة! هيا هيا.. حدِّث..

- أؤكد لك يا أركاشا أن ذلك مستحيل.

- وأنا لا أريد أن أسمع حديثك.

بدأ فاسيا حديثه يقول، وهو على تلك الحال من الاضطجاع مقلوبًا فوق السرير، محاولًا أن يسبغ على كلامه ما يطيق إسباغه عليه من جدٍ ورصانة:

- طيب يا أركاشا... ربما قلت لك.. ولكن...

- ما هي المسألة أخيرًا؟

- طيب... المسألة أنني خطبت!

عندئذ رفع أركادي إيفانوفتش صاحبه كما يُرفع طفل، دون أن ينطق بكلمة، رغم أن فاسيا ليس قصير القامة، بل أميل إلى الطول، وإن يكن نحيلًا. ثم أخذ يطوف به الغرفة حاملًا إياه على ذراعيه ماضيًا به من أول الغرفة إلى آخرها متظاهرًا بأنه يؤرجحه، مرددًا على مسامعه من حين إلى حين قوله:

- ما رأيك إذا وضعتك في القماط أيها الخطيب الجميل؟

لكنه، وقد لاحظ أن فاسيا أصبح لا يتحرك ويرفض أن يفتح فمه، غيَّر رأيه، قائلًا لنفسه إنه ربما يكون قد بالغ في المزاح قليلًا، فأوقفه على قدميه وسط الغرفة، وطبع على خده قبلة مودة.

- هل زعلت يا فاسيا؟

- استمع إليَّ يا أركاشا...

- كان هذا من قبيل الإحتفال برأس السنة.

- لست أقول شيئًا... ولكن لماذا تقوم بأفعال المجانين هذه؟ قلت لك مرارًا: أركاشا ليس في أفعالك هذه شيء من فكاهة؛ صدقني: ليس فيها شيء من فكاهة البتة.

- ولكن أأنت حاقد عليّ؟

- طبعا لا... وهل زعلت يومًا من أحد؟ لقد آلمتني... هذا كل ما في الأمر.

- آلمتك؟

- طبعًا... كنت آتيًا إليك كما يأتي المرء صديق، طافحَ القلب ممتلئ النفس، أريد أن أحدثك عن سعادتي.

- ولكن أية سعادة هذه؟ لماذا لا تقول شيئًا؟

- ألم أقل لك إنني سأتزوج؟

هكذا أجاب بلهجة حادة، لأنه كان في الواقع غاضبًا بعض الغضب.

هتف أركاشا يقول:

- ستتزوج؟ صحيح؟... لا... ما هذا الكلام؟ انظروا ماذا يقول والدموع في عينيه... هيا يا فاسيا... دعك من هذا الكلام يا صغيري فاسيوك... أصحيح ما تقول؟

وراح أركادي إيفانوفتش يقبل صاحبه من جديد.

قال فاسيا:

- هل فهمت الآن ما حدث لي؟ أنا أعرف أنك طيب، وأنك صديقي، فجئت إليك فرح القلب مشرق النفس، فإذا أنت تجبرني أن أحدثك عن سعادتي مقلوبًا على السرير موثق اليدين، مهان الكرامة.

ثم أضاف فاسيا يقول مبتسمًا:

- طبعًا... ذلك مشهد مضحك يا أركاشا... ولكنني كنت في تلك اللحظة لا أملك نفسي بمعنى من المعاني. لذلك لم أستطع أن أهونِ من شأن القضية... لم يكن ينقصك إلّا أن تسألني عن اسمها... يمينًا إنني لأوثر أن أُقتل على أن أذكر اسمها وأنا على ذلك الوضع.

- ولكن لماذا لم تقل لي شيئًا قبل ذلك يا فاسيا؟ لو قد أبلغتني الأمر من قبل، لما تصرفت تصرف المجانين ذاك!

كذلك هتف أركادي إيفانوفتش آسفًا أصدق الأسف. فقال له فاسيا:

- طيب.. طيب.. لا تزعل.. لست حاقدًا عليك... أبدًا. أنت تعلم أن مرَدّ هذا كله إلى أنني طيب القلب.. لذلك آلمني جدًّا أنني لم أستطع أن أروي لك الأمر على نحو ما كنت أحب أن أرويه... وأن أقص عليك كل شيء بهدوء، وأن أطلعك على المسألة في صورة لائقة... إننى أحبك كثيرًا يا أركاشا، ويبلغ حبي لك أنني ما كنت لأتزوج لولا وجودك معي، بل لعلني ما كنت لأوجد أيضًا!

كان أركادي إيفانوفتش، وهو إنسان ذو طبيعة حساسة جدًّا، يضحك ويبكي أثناء سماعه كلام صديقه. وكذلك كان يفعل فاسيا. تعانق الصديقان، ناسيين مشاجرتهما الصغيرة.

- ولكن احكِ لي الآن كل شيء! كيف تم ذلك يا فاسيا؟ معذرة يا عزيزي، ولكنني مدهوش، بل مصعوق!... هل صحيح ما تقول؟ أم تلفق شيئًا؟ بلى بلى... لا شك أنك تمزح.

بهذا صاح أركادي إيفانوفتش وهو يلقي على صديقه نظرة شك. لكنه، وقد قرأ في وجه صديقه تأكيدًا لعزمه القاطع على الزواج بأقصى سرعة، ارتمى على السرير وأخذ من فرط فرحه «يتشقلب تشقلبات» بلغت من القوة أن اهتزت لها جدران الغرفة.

قال أخيرًا وقد هدأ:

- فاسيا، تعال اجلس!

- حقا يا عزيزي... لا أدري من أين أبدأ...

نظر الصديقان أحدهما إلى الآخر منفعلين فرحين.

- من هي يا فاسيا؟

قال فاسيا بصوت يرتجف سعادةً:

- من أسرة آرتمييف.

- لا... صحيح؟.

- صحيح.. ألم أحدثك عنهم دائمًا؟ ثم انقطعتُ عن الإتيان على ذكرهم... ولم تلاحظ أنت شيئًا... آه يا أركاشا! لكم تحملت من عناء في سبيل أن أكتم عنك الحقيقة! كنت أقول لنفسي: ربما انهار كل شيء... لكنني أحبها يا أركاشا... نعم أحبها.. وإليك القصة (كذلك بدأ يروي القصة متوقفًا وقد غلبه الإنفعال). منذ سنة كانت ما تزال مخطوبة. ولكن خطيبها أُرسل إلى مكانٍ ما في الأقاليم، بمهمة رسمية. وقد عرفته أنا.. الخلاصة: ما لنا ولهذا!... كان رجلًا لا أدري ما قيمته.. وها هو ذا ينقطع عن الكتابة فجأة، ويغيب غيابًا تامًا انتظروه... ثم انتظروه... ثم أخذوا يتساءلون ما عسى تكون دلالة هذا الإنقطاع. وفجأة، منذ أربعة أشهر تقريبًا، عاد... ولكنه عاد متزوجًا، ولم يجئ إليهم مرة واحدة!... شيء لا وفاء فيه ولا نبل... شيء يبعث على الاشمئزاز! وما من أحد يدافع عنهم، أو يقتص لهم! لقد بكت المسكينة كثيرًا. أما أنا

فكنت أحبها منذ زمن طويل! بل كنت أحبها منذ الأبد! فأخذت أواسيها وأعزيها... أخذت أتردد عليها كثيرًا... الخلاصة: أنا نفسي لا أعرف كيف تم الأمر... ولكنها تعلقت بي هي أيضًا. ومنذ ثلاثة أيام لم أستطع أن أملك زمام نفسي، فأجهشتُ باكيًا وقلت لها كل شيء، أي قلت لها إنني أحبها... قلت لها كل شيء... فأجابتني بقولها: «وأنا أيضًا يا فاسيلي بتروفتش، مستعدة لأن أحبك... ولكنني فتاة فقيرة فلا تضحك عليّ... لقد أصبحت لا أجرؤ أن أدع لهذه العاطفة أن تنشأ في نفسي...». هل فهمت يا صاحبي؟ هل فهمت؟ وهكذا تعاهدنا. ثم أخذت أفكر، باحثًا عن وسيلة لإبلاغ أمها. قالت لي: «الأمر صعب. انتظر قليلًا... ذلك أنها تخاف... فقد تأبى الموافقة على خطوبتنا». وطفقت تبكي. ومضيتُ إلى السيدة العجوز أصارحها بالأمر دون أن أقول للفتاة شيئًا. حدث ذلك هذا اليوم وجثونا أنا وليزانكا ([1]) عند قدميها... فإذا هي تبارك خطوبتنا... اسمع يا أركاشا، يا صديقي، سنسكن معًا... لن أرضى أن أنفصل عنك بأية حال من الأحوال.

- رغم كل شيء لا أكاد أصدق أن هذا صحيح! يميناً لا أكاد أصدق!... ما يزال يخيل إليَّ أن.... هل صحيح أنك ستتزوج يا صاحبي؟ كيف لم أعرف عن هذا الأمر شيئًا؟ يجب أن أعترف لك يا فاسيا أن فكرة الزواج قد راودتني أنا أيضًا... على كل حال، ما دمت تريد أن تتزوج، فليكن. أتمنى لك السعادة يا صاحبي، أتمنى لك السعادة!

قال فاسيا وهو ينهض ويأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا:

- ليتك تعلم يا صاحبي مدى ما أشعر به من فرح في قلبي وغبطة في نفسي. أنت تشعر بهذا الشيء نفسه، أليس كذلك؟ طبعًا سنعيش عيشة بسيطة متواضعة ولكننا سنكون سعداء. وليس ذلك وهمًا. لن تكون سعادتنا سعادة خيالية... ستكون حقيقة....

- اسمع يا فاسيا!

- ماذا تريد؟

سأل فاسيا هذا السؤال وهو يتوقف أمام أركادي إيفانوفتش.

- تراودني فكرة... ولكنني أخشى أن أنقلها إليك. اعذرني. ولكن يجب أن تبدد شكوكي. مم وكيف ستعيش؟ إنه ليسعدني طبعًا أن أعلم أنك ستتزوج، بل إن هذا ليملأ قلبي فرحًا... ولكن كيف ستعيش؟

أجاب فانيا وهو يتأمل نيفيديفتش مدهوشًا:

- أهذا سؤال يا أركاشا؟ ماذا دهاك يا صاحبي؟ إن الأم نفسها لم تتردد أكثر من دقيقتين حين شرحت لها الوضع بوضوح. أحرى بك أن تسألني كيف عاشوا حتى الآن؟ خمسمائة روبل في السنة، لثلاثة أشخاص، ذلك دخلهم كله، ذلك كل ما خلفه الأب حين توفى. فهي، والسيدة العجوز، والأخ الصغير الذي ما يزال تدفع له أجور الدراسة، هؤلاء جميعًا يعيشون من هذا المبلغ... وهم يعيشون مع ذلك! أنا وأنت نعد من الرأسماليين بالقياس إليهم! أنا مثلًا يصل كسبي حين يواتيني الحظ إلى سبعمائة روبل في السنة!

- معذرة يا فاسيا... أقسم لك أن خوفي من أن أرى الأمور تتعثر هو الذي يدفعني إلى هذا الكلام... كيف تحسب سبعمائة؟.. أنا لا أرى منها إلا ثلاثمائة.

- ثلاثمائة وجوليان ماستاكوفتش؟ هل نسيته؟ جوليان ماستاكوفتش ([2])؟ ولكن هذا العمل يا صاحبي غير مضمون... ليس كالمرتب الثابت البالغ ثلاثمائة روبل، والذي يُعد كل روبل منه صديقًا أمينًا وفيًا. لا شك أن جوليادكين ماستاكوفتش رجل مرموق. وأنا أضمر له كثيرًا من الاحترام، وأفهمه، رغم أنه يحتل منصبًا كبيرًا... بل إنني أحبه أيضًا، لأنه يحبك فيدفع لك أجر عمل إضافي كان في وسعه أن يعده عملًا رسميًا وأن يكلف به أي موظف.. وافقني يا فاسيا، استمع إليّ أنا لا أمزح، صحيح أنه ليس من السهل العثور في بطرسبرج على شخص يضارع حظه حظك... أنا أسلم بذلك (صرّح نيفيديفتش بذلك متحمسًا أشد التحمس)... ولكن ماذا لو أصبح غير راضٍ عن عملك، أو لم يبق ثمة عمل يعهد به إليك، أو استعاض عنك بشخص آخر!... لا يعلم إلا اللّه ما قد يحدث... الخلاصة أنه إذا كان هناك اليوم جوليان ماستاكوفتش، فمن الجائز أن لا يكون هناك شيء البتة غدًا!

- اسمع يا أركاشا، من الجائز أيضًا أن ينهار السقف على رأسينا الآن...

- طبعًا طبعًا، أنا لا أقول...

- استمع إليَّ. لماذا تتصور أن يكف عن الاستعانة بخدماتي؟ إنني أقوم بعملي بهمة ونشاط... ومن جهة أخرى فهو إنسان طيب يا أركاشا... لقد أعطاني في هذا اليوم نفسه خمسين روبلا فضة!

- ماذا تقول يا فاسيا؟ أكانت هذه مكافأة؟

- أبدًا... دفع لي هذا المبلغ من جيبه. قال لي: إنك لم تتقاض شيئًا منذ خمسة أشهر يا عزيزي فخذ هذا. تلك كانت كلماته هو نفسه. ثم أضاف: «لا يُعقل أن تقوم لي بهذا العمل عبثًا». ترقرقت الدموع في عينيَّ يا أركاشا...

- قل لي يا فاسيا، هل أكملت كتابة النسخة؟

- لا، لم أكملها بعد.

- فاسنكا، عزيزي، ماذا عملت إذن؟

- لا تخف يا أركادي، المسألة بسيطة، بقي لي يومان. هناك متسع من الوقت.

- ولكن كيف لم تنسخ شيئًا حتى الآن؟

- دعك دعك! إنك لتنظر إليَّ بعين يبلغ تعبيرها عن الأسف والحسرة أن قلبي ينقلب في صدري! ما قيمة هذا التأخر؟ إنك تحزنني دائمًا بأوضاعك هذه! فكر قليلًا: أين ما يخيف كل هذا الخوف؟ سأنجز كل شيء... أحلف لك...

صاح أركادي وهو ينهض واثبًا:

- وإذا لم تنجز؟ فمَن الذي أعطاك مكافأة في هذا اليوم نفسه؟ وأنت تروح تتزوج... آه... آه...

- أقول لك لا تخف... المسألة بسيطة. سأقوم إلى العمل فورًا... أقول لك إن المسألة بسيطة!

كذلك صاح شومكوف هو أيضًا.

- كيف أهملت هذا الإهمال يا فاسيونكا؟

- هوه... أركاشا... هل أستطيع أن أظل لاصقًا بكرسي؟ هل كان عقلي في هذا؟ إنني في المكتب نفسه لا أكاد أستطيع الإستقرار في مكاني من فرط خفقان قلبي!... أما الآن، فأحلف لك... سوف أعمل طوال الليل... ثم أعمل في الليلة القادمة، ثم في الليلة التي بعدها، فأكمل كل شيء..

- هل بقيّ عمل كثير؟

- أرجوك، لا تضايقني، لا تشغلني عن العمل، اسكت.

اقترب أركادي إيفانوفتش من سريره على رؤوس الأصابع، وقعد عليه، ولم يلبث أن أراد النهوض من جديد، ولكنه لم ينهض خشية أن يزعج صديقه، ومع ذلك فإنه لا يكاد يستطيع الإستقرار في مكانه. كان منفعلًا انفعالًا شديدًا، واضح أن نبأ الزواج قد أقلقه كثيرًا. لم تكن قد خمدت حماسته بعد. وها هو ذا يلقي نظرة على شومكوف. ونظر إليه صديقه، وابتسم له، وهدده بإصبعه، ثم حدَّق إلى الأوراق مقطبًا حاجبيه تقطيبًا رهيبًا (كأن شدة العمل ونجاح العمل متوقفان على ذلك.

إن من يراه يحس أنه لمَّا يسيطر على انفعاله بعد.

تناول ريشة أخرى، اضطرب في مكانه وغيرَّ جلسته، وعاد يكتب. لكن يده ترتجف وتأبى أن تسعفه.

صاح فجأة يقول كأنما تذكر الأمر في هذه اللحظة نفسها:

- أركاشا! لقد حدثتهم عنك.

- صحيح؟ لقد أردت أن ألقي عليك هذا السؤال نفسه.

- صحيح... ولكنني سأروي لك كل شيء فيما بعد... هذه خطيئتي... نسيت نسيانًا تامًّا أنني آليت على نفسي أن لا أحكي لك شيئاً قبل أن أنجز نسخ أربع صفحات. لكنني فكرت فيك وفيها فجأة... عجيب يا صاحبي... لا أقدر أن أنكب على الكتابة... إنني أفكر فيكما طول الوقت!

قال فاسيا ذلك وابتسم. وأعقب ذلك صمت.

صاح فاسيا وهو يضرب الطاولة ويتناول ريشة أخرى:

- ما أسوأ هذه الريشة.

-فاسيا. اسمع. كلمة واحدة لا أكثر.

- ولكن أسرع... هذه آخر مرة...

- هل يقي عمل كثير؟

أجاب فاسيا وقد تقبض وجهه كأنه لا يمكن أن يوجد سؤال مروِّع صاعق كهذا السؤال:

- هوه... أركاشا... لا تكلمني هي هذا. ما يزال هناك مقدار فظيع.

- هل تعلم ماذا يخطر ببالي؟

- ماذا يخطر ببالك؟

- بل دعنا من هذا، واستمر في الكتابة...

- ماهي المسألة؟ ماذا تريد أن تقول؟

- انقضت الساعة السادسة يا فاسيوك!

قال نيفيدفتش ذلك وابتسم وغمز بعينه غمزًا ماكرًا. لكنه يبدو خجلًا بعض الخجل، لا يدري كيف سينظر فاسيا إلى الأمر.

- ماذا تعني.

سأل فاسيا هذا السؤال وقد اصفر وجهه من نفاد صبره، وانقطع عن الكتابة شاخصًا ببصره إلى صديقه.

- أتعرف ماذا سنفعل؟

- ولكن هلا أفصحت أخيرًا! هلا قلت!

- أرأيت؟ إنك في حالة عصبية، ولا أحسب أنك قادر على أن تنجز شيئًا كثيرًا وأنت في هذه الحالة... انتظر.. دعني أكمل كلامي.. اسمع.. (كذلك قال نيفيديفتش ملحًا وهو ينهض بوثبة ويقطع طريق الكلام على فاسيا). قبل كل شيء عليك أن تهدئ روعك و أن تستجمع قواك. ألنا على حق؟

صاح فاسيا وهو يدفع الكرسي:

- أركاشا، أركاشا، أحلف لك لأعملن طوال الليل، أحلف لك.

- أعرف، أعرف، ولكنك ستنام عند الفجر.

- لا.. لن أنام... لن أنام بحال من الأحوال...

- وأنا أقول إنك لن تستطيع المقاومة، ثم إنه يجب عليك أن تنام قليلًا، من الخامسة إلى الثامنة مثلًا. وسأوقظك في الثامنة، وغدًا عيد فتجلس وتكتب طوال النهار... ثم تكتب في الليل.. ولكن كم صفحة بقيّ عليك أن تنسخ؟

- أنظر.

قال فاسيا ذلك وأظهر صديقه على الدفتر مضطربًا من الفرح ونفاد الصبر...

- اسمع يا صاحبي... ليس هذا بالأمر الضخم!

- ويوجد أشياء أخرى هناك يا صاحبي...

بهذا أجاب فاسيا، وهو يلقي على نيفيديفتش نظرة تائهة، كأن الإذن بالخروج رهن بمشيئة صاحبه.

- كم صفحة هناك؟

- صفحتان... صغيرتان!

- طيب.. سيكون لدينا متسع من الوقت لإنجاز هذا كله. سيكون لنا متسع من الوقت.

- أركاشا!

- فاسيا، نحن الآن في عشية رأس السنة الجديدة. جميع الناس في هذا المساء مع أسرهم، إلا نحن... نحن وحدنا يتامى منعزلون، أليس كذلك يا فاستكا؟

قال نيفيديفتش ذلك وضمَّ فاسيا بذراعيه القويتين.

- طيب يا أركاشا... قررنا...

- فاسيوك... عزيزي فاسيوك... ولكنني أريد أن أقول لك شيئًا، فاصغ إليَّ...

غير أن أركادي توقف عن الكلام فاغر الفم، طافحًا حماسة، عاجزًا عن إكمال جملته. كان فاسيا قد وضع يديه على كتفي صاحبه، إنه يحدق إليه ويحرك شفتيه كأنه يريد أن يكمل ما لم يستطع صاحبه أن يكمله.

- هيه!

- عرفني بهم هذا المساء!

- أركادي... فلنمض إليهم لتناول الشاي. لن نبقى إلى أبعد من منتصف الليل، بل قد نتصرف قبل منتصف الليل.

بذلك صاح فاسيا وهو في ذروة الافتتان.

- أي نمكث عندهم ساعتين، لا أكثر ولا أقل!

- ثم لا نزورهم ثانية إلا بعد أن أكون قد أنجزت كل شيء...

- فاسيوك!

- أركادي!

بعد بضع دقائق كان أركادي في أجمل حلة، وأبهى هندام، أما فاسيا فلم يحتج إلى أكثر من المرور على ردائه بالفرشاة، لأنه كان قد ظل مرتديا ثياب الخروج من فرط إسراعه إلى الانكباب على العمل.

خرجا إلى الشارع، وسارا بخطى متواثبة، سعيدين كل السعادة. الطريق أمامهم طويل من بطرسبرجسكايا ([3]) إلى كولومنا ([4]). كان أركادي إيفانوفتش يتقدم بخطى كبيرة وقوة واضحة، فكانت مشيته وحدها تفضح سروره برؤية فاسيا سعيدًا مزيدًا من السعادة في كل لحظة. أما فاسيا فلم تكن خطاه كبيرة إلى هذا الحد، ولكنه كان رغم إسراعه يحتفظ بهيئة وقورة ومظهر رصين. لم يسبق لأركادي أن رآه يومًا على مثل هذه الصورة من المهابة. إنه يشعر نحوه الآن باحترام خاص. إن آفة جسمية ما يزال يجهلها القارئ (فاسيا مخلّع الوركين قليلًا) كانت تثير دائمًا في نفس أركادي شيئًا من شفقة وحزن. أما الآن فإن هذه العاهة اليسيرة قد زادت من حب أركادي له، وزادت حنانه عليه، وتلك عاطفة لا شك أن فاسيا يستحقها من جميع النواحي. إن أركادي ليبلغ الآن من السعادة أنه يوشك أن يجهش باكيًا. ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه وأن يمسك عن البكاء.

صاح يقول وقد لاحظ أن صاحبه يتهيأ للسير في شارع فوزنستكي:

- إلى أين أنت ذاهب يا فاسيا. الطريق من هنا أقصر.

- اسكت يا أركاشا، اسكت!

- أؤكد لك يا فاسيا أن الطريق من هنا أقصر.

قال فاسيا وقد لاح في وجهه سر، وارتعش صوته من الانفعال:

- هل تعلم يا أركاشا أنني أريد أن أهدي إلى ليزانكا هدية صغيرة؟

- هدية؟

- اسمع يا صاحبي، هنا تقع دكان مدام لورو، وهي دكان أنيقة جدًّا..

- طيب؟

- قبعة صغيرة يا صاحبي، قبعة صغيرة... اليوم رأيت عند مدام لورو قبعة رائعة. سألت عنها فقيل لي إن طرازها يسمى طراز «مانون ليسكو» ([5])، إنها تحفة! لها شرائط بلون الكرز... فإذا لم تكن باهظة الثمن... بل حتى لو كانت غالية يا أركاشا..

- فاسيا، يمينًا لأنت تفوق جميع الشعراء... هيا بنا...

استحثا الخطى، فما هي إلا دقائق حتى كانا في مخزن مدام لورو.

هي فرنسية كحلاء العينين مضفورة الشعر. إنها تقبل عليهما، فما تكاد تلقي على الزبونين نظرة حتى تغدو في مثل فرحهما وسعادتهما، بل تغدو أسعد منهما إذا جاز التعبير. كان فاسيا، وهو في غمرة الحماسة، مستعدًا لأن يقبل مدام لورو.

قال فاسيا بصوت خافت، وقد أجال بصره على القبعات الرائعة المعلقة على مساند، والمصفوفة فوق المنضدة الكبيرة في المخزن:

- يا للروائع.. وتلك! هل تراها... تلك السكرَّة؟

قال فاسيا ذلك وهو يشير إلى قبعة صغيرة غير التي كان ينوي شراءها في أول الأمر. ذلك أنه لاحظ من بعيد والتهمَ بعينيه قبعة أخرى تخطف البصر وتأخذ باللب أجمل من سائر القبعات، موجودة في الطرف الآخر من المنضدة، بلغ فاسيا من شدة الاشتهاء حين نظر إليها أن من يراه في تلك اللحظة يخيل إليه أنه يخشى أن يسرقها أحد، أو أن تطير القبعة من تلقاء نفسها، لا لشيء إلا مكرًا بفاسيا وكيدًا له.

قال أركادي إيفانوفيتش وهو يشير إلى قبعة أخرى:

- في رأيي أن هذه أجملها!

- مرحى يا أركاشا! اختيارك هذا دليل على حسن ذوقك! حتى لقد أخذت أشعر نحوك باحترام خاص. القبعة التي اخترتها فتانة حقًا. ولكن تعال انظر هنا.

كذلك صاح فاسيا مبيحًا لنفسه أن يمكر بصاحبه هذا المكر البسيط البريء.

قال أركادي بلهجة الشاك:

- هذه؟

ولكن حين شالها فاسيا عن مسندها الخشبي، عاجزًا عن ضبط نفسه، حين شالها عن مسندها الخشبي فكأنها تطير من تلقاء نفسها طيرانًا لشدة فرحها بزبون متحمس لها هذه الحماسة، وحين خفخفت أشرطتها وزخارفها وتخريماتها فرحة. انطلقت صيحة إعجاب من صدر أركادي إيفانوفتش القوي. وها هي ذي مدام لورو نفسها (وقد لزمت طوال وقت الإختيار كل وقارها وحافظت على جميع ميزات حسن الذوق التي تتمتع بها، ولم تصمت إلا من قبيل التسامح)، ها هي ذي تكافئ فاسيا الآن بابتسامة تحبيذ كبيرة، إن كل ما فيها من نظراتها، إلى إشاراتها، إلى ابتسامتها نفسها، يأتي مصدقًا لحسن هذا الإختيار وروعة هذا الانتقاء... إن كل ما فيها يقول: «نعم لقد أصبت، وأنت جدير بالسعادة التي تنتظرك...».

صاح فاسيا يقول، ناقلًا كل حبه إلى القبعة:

- ألم تكن كأنها ترمقنا من ركنها القصي؟ أليس يبدو أنها كانت تختبىء عنا عمدًا، هذه الشيطانة!.

وقبّل فاسيا القبعة، أعني قبل الهواء الذي يحيط بها، مخافة أن تفسد قبلته كنزه.

أضاف أركادي يردد على سبيل الضحك، قولًا مأثورًا كان قد قرأه في ذلك الصباح نفسه:

- كذلك تختفي الفضيلة الصادقة عن أعيننا دائمًا. وأضاف: «وبعد، ألا ننصرف يا فاسيا؟»

- مرحى... أركاشا! أنت اليوم فكه اللسان خفيف الروح... لسوف تحدث جنونًا بين السيدات، كما يُقال... أتنبأ لك بهذا... مدام لورو، مدام لورو!

- نعم يا سيدي.

- عزيزتي مدام لورو!

استقبلت مدام لورو فاسيا متسامحة.

- لن تصدقي ما أقوله... ولكنني أعبدك في هذه اللحظة.. اسمحي لي أن أقبلك...

قال فاسيا هذا وقبل صاحبة المخزن.

كان لا بد طبعًا، في هذا الظرف من احتفاظ مدام لورو بكل رصانتها ووقارها حتى لا يسقط اعتبارها أمام فتى أحمق كهذا الفتى! وأنا أؤكد أنه كان لا بد أيضًا من ذلك اللطف الناعم الرشيق الذي فطرت عليه مدام لورو و استقبلت به حماسة فاسيا. لقد عذرته مدام لورو، ولم تلبث أن عادت إلى هدوئها بالذكاء واللباقة كلتيهما. وهل يمكن أن يغضب أحد من فاسيا؟

- مدام لورو ما ثمن هذه القبعة؟

قالت مدام لورو وقد ثابت إلى هدوئها وعادت تبتسم:

- خمسة روبلات فضة.

سأل أركادي مشيرًا إلى القبعة التي كان قد وقع عليها اختياره:

- وتلك يا مدام لورو؟

- ثمانية روبلات فضة.

- من فضلك من فضلك يا مدام لورو... قولي أنت، أرجوك، أي القبعتين أجمل، أيهما أرشق، أيهما أفتن؟

- تلك أثرى، ولكن التي اخترتها أنت أفتن.

- إذنْ أخذها

تناولت مدام لورو ورقة ناعمة كل النعومة، فلفت بها القبعة، وثبتت الورقة بدبوس، حتى لكان الشيء الذي تحمله الورقة أصبح الآن أخف مما كان عليه.

تناول فاسيا اللفة بكثير من التأني والحذر، وهو لا يكاد يستطيع أن يتنفس من شدة الهيجان. ثم حيا مدام لورو ومدحها وخرج من المخزن.

- أنا إنسان يحب الحياة ومباهجها يا أركاشا! لقد خلقت محبًا لمتع الحياة!

كذلك هتف فاسيا وهو يطلق ضحكة عصيبة لا تكاد تسمع، ويدور ويلف كثيرًا حتى يتحاشى المارة الذين يتصور أنهم يريدون جميعًا أن يصدموا قبعته، وردَّد بعد دقيقة بصوت فيه الحنان والقوة معًا:

- اسمع يا أركادي... أنا سعيد جدًا، سعيد جدًا.

- وأنا يا فاسكا، وأنا يا عزيزي، أتحسبني غير سعيد؟

- لا يا أركاشا... أنا أعرف أنك متعلق بي تعلقًا كبيرًا... ولكنك لا تستطيع أن تحس بعشر معشار ما أحس به أنا في هذه اللحظة. إن قلبي يطفح فرحًا! أركاشا! أنا لا أستحق كل هذه السعادة!... أشعر بذلك، أعرف ذلك (قال هذا بصوت مخنوق، وهو لا يكاد يستطيع السيطرة على انفعاله). قل لي ما الذي يجعلني جديرًا بهذه السعادة كلها. انظر حولنا، ما أكثر الناس والدموع والآلام والأيام الحزينة الكالحة التي لا تعرف الأعياد!... وأنا... أنا تحبني فتاة حلوة عذبة... ستراها بنفسك بعد هنيهة. ستعرف كيف تقدر قلبها النبيل وروحها الكريمة... لقد ولدت في بيئة متواضعة، ولكنني الآن أملك رتبة، وأملك دخلًا مستقلًا، وأملك مرتبًا! وقد ولدت مع عاهة في جسمي، فأنا مخلَّع الوركين قليلًا، ومع ذلك فهي تحبني على ما أنا عليه كما ترى. واليوم كان جوليان ماستاكوفتش لطيفًا في معاملتي كل اللطف، كريمًا كل الكرم، يحمل لي أحسن النيات وأطيب المشاعر! لقد اقترب مني وقال لي: هيه فاسيا (أقسم لقد خاطبني هكذا: فاسيا!)، «أليس في نيتك أن تمتع نفسك أثناء الإجازة؟». قال ذلك وضحك فأجبته: «كلا يا صاحب السعادة. لديَّ أعمال يجب أن أنجزها»... ثم تجرأت فأضفت قولي: «مع ذلك ربما تسليت قليلًا يا صاحب السعادة». يشهد الله أنني جاوبته هكذا. وعندئذ إنما أعطاني المال، ووجَّه إليَّ كلمات أخرى. غرقت في دموعي يا صاحبي. يمينًا لم أستطع أن أضبط نفسي، وأعتقد أنه تأثر هو أيضًا. فقد ربت على كتفي وقال لي: «أرجوك يا فاسيا أن تظل حساسًا كما أنت الآن، وأن تظل قادرًا على أن تقدِّر...».

صمت فاسيا. وكفكف أركادي دمعه هو أيضًا.

تابع فاسيا يقول:

- ثم... إليك ما كنت أريد أن أقوله أيضًا يا أركادي... ولم أقله في يوم من الأيام. أركادي! إن صداقتك تملأ قلبي وتغمر نفسي.... وأنا من شدة سعادتي بذلك أشعر أنني ما كان لي أن أستطيع الحياة على هذه الأرض بدونك... لا... لا... لا تقل شيئًا يا أركاشا. اسمح لي أن أصافحك وأن أشكرك!...

واضطر فاسيا أن يقطع كلامه من جديد، فقد كان أركادي يتهيأ لتقبيل فاسيا، وكانا يقطعان الشارع من رصيف إلى رصيف، فإذا بصرخة حوذي تدوِّي على مقربة منهما، فيهرعان إلى الرصيف مروَّعين. والحق أن أركادي قد سرَّ بهذا، فان إكثار فاسيا هذا لم يكن له ما يسوغه غير ظروف خارقة. أما هو فكان يشعر بشيء من الضيق. إنه يدرك أن ما فعله في سبيل فاسيا حتى اليوم كان قليلًا، حتى لقد أحس بالخجل حين شكره فاسيا من أجل ترهات كهذه! على أن الحياة ما تزال أمامهما فتنفس أركادي الصعداء، وأطلق من صدره آهة تخفّف وفرح.

لا شك أن وصولهما لم يكن متوقعًا. والدليل على ذلك أن الأسرة كانت قد بدأت تناول الشاي. ومع هذا فما أكثر ما يحدث أن يكون المسنُّون أبصر بالأمور من الشباب... وأي شباب! كانت ليزانكا تؤكد أنه لن يجيء. فهي تقول لأمها: «لن يجيء يا ماما، قلبي يقول لي ذلك». أما أمها فكانت تردد دائمًا أن قلبها هي يقول لها خلاف ذلك تمامًا، فلا بد أن يجيء، ولن يستطيع أن يستقر في مكانه هادئ البال، وسيهرع

إليهم حتمًا، لا سيما وأن المكاتب مغلفة، فاليوم عشية عيد رأس السنة وحتى حين فتح الباب لم تكن ليزانكا تتوقع أن تراه. فلما رأته لم تصدق عينيها، واستقبلته لاهثة الأنفاس خافقة القلب كعصفور أسير محمرة الوجه كثمرة كرز (وهي تشبه الكرز على كل حال).

رباه! يا للمفاجأة الجميلة الممتعة! وانطلقت من شفتيها الصغيرتين آهات فرحة... قالت وهي ترتمي على عنق فاسيا: «يا لك من مخادع يا حبيبي!...». ولكن تصوروا دهشتها واضطرابها حين رأت أركاديا واقفًا وراءه خجولًا وجلًا كأنه يريد أن يختبىء. يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن أركاديا شاب تعوزه الثقة بنفسه في حضور النساء، تعوزه كثيرًا، حتى أنه في ذات مرة... ولكننا سنتحدث عن هذا في حينه. ضعوا أنفسكم في مكانه مع ذلك. سترون أن خجله ليس فيه شيء من سخف. لقد كان هناك، واقفًا في حجرة المدخل، غريب الملابس بحذاءيه المطاطيين وردائه العريض وطاقيته التي من فراء، وعمرته التي تغطي العنق والأذنين والتي أسرع يخلعها كيفما اتفق من جهة أخرى. ثم لقد كان حلقه ملفوفًا بعصبة تغطي الأنف، عصبة صفراء من صوف محبوك، دميمة جدًّا، كان قد عقدها، فوق ذلك، في ظهره! كان لا بد له أن يخلع هذه الأشياء كلها، وأن ينضوها عنه بأقصى سرعة، وأن يقدم نفسه تقديمًا لائقًا، فما من إنسان إلا ويجب أن يظهر للناس بأحسن منظر. وهناك، مع ذلك، فاسيا، فاسيا الذي لا يُطاق، فاسيا المزعج، فاسيا المثير الذي لا يُحتمل بالرغم من أنه لطيف وطيب جدًّا.

- هذا صديقي أركادي يا ليزانكا. ما رأيك فيه؟ هو خير صديق لي. قبليه يا ليزانكا... قبليه ما دمت أقول لك ذلك... لسوف تقبلينه راضيةً مختارة حين تعرفينه مزيدًا من المعرفة.

ما العمل في مثل هذه الحالة؟ قل لي ناشدتك اللّٰه؟ ما عسى يكون رد أركادي إيفانوفتش، هو الذي لما يكمل نزع منديله بعد! أؤكد لك أن هذه الحماسة الطافحة في فاسيا تربكني. صحيح أنها دليل على أنه امرؤ طيب القلب، ومع ذلك فإن المرء ينزعج منها، بل يضيق بها!

وأخيرًا دخل الشابان كلاهما. أظهرت العجوز أنها سعيدة جدًّا بمعرفة أركادي إيفانوفتش. لقد سمعت عنه كثيرًا، وهي... لكنها لم تستطع أن تكمل جملتها، لأن صيحة فرحة دوَّت في الغرفة، فقطعت كلامها. رباه! ما أجملها!

كانت ليزانكا واقفة أمام القبعة بعد أن نزعت عنها ورقتها الحريرية... إنها تضم يديها الصغيرتين وقد لاح في وجهها معنى مؤثر، بريء، ساذج. كأنه بسمة للملائكة... لماذا لم يوجد عند مدام لورو قبعة أجمل من هذه القبعة أيضًا؟

دعك من هذا الكلام! أين يمكن أن تجد قبعة أجمل منها؟ حقًّا إنها لتتجاوز كل حد. إن مثل هذا العقوق لدى العشاق يغضبني قليلًا، بل يحزنني أيضًا. أنظروا بأنفسكم أين يمكن أن توجد قبعة في مثل هذه الفتنة والروعة! انظروا!... ولكن لا... إن ملاحظاتي هذه لا لزوم لها، هم الآن جميعًا من رأيي. لم يكن ذلك إلا ضلالًا عارضًا، إلا ضبابًا مضللًا، إلا خطأً طارئًا... أنا مستعد كل الإستعداد لأن أغفر لهم

ذلك... هلا نظرتم (لا تؤاخذوني، فأنا ما زلت أتكلم على القبعة): هي من نسيج دقيق خفيف، لها عصبة بلون الكرز، مغطاة بتخريم يمرّ بين القبة والحواشي، وفي الخلف عصبتان أخريان طويلتان عريضتان تسقطان على النقرة وتتهدلان حتى العنق... ولكن يجب دفع القبعة قليلًا إلى الوراء لتكشف عن الجبين... هلا نظرتم ولكنكم لا تنظرون... فيما أرى. أحسب أنكم لا تحفلون بالأمر... ثم إن انتباهكم مشدود إلى جهة أخرى. إنكم ترون دمعتين كبيرتين، كأنهما لؤلؤتان، تلتمعان فجأة في عينين سوداوين مخمليتين ترتعشان لحظة على الأهداب الطويلة ثم تسقطان برفق على النسيج الخفيف خفة الهواء، الذي صنعت منه تحفة مدام لورو... ولكنني أهم أن أزعل مرة أخرى... ذلك أن هاتين الدمعتين لم تتساقطا من أجل القبعة وحدها. ليس هذا هو الأمر في نظري.. لا.. حتمًا.. يجب على المرء أن يقدم هدية كهذه الهدية هادئ البال، غير مهتاج العاطفة... وحينئذ فقط يمكن أن تُقدر حق قدرها... على أنني أعترف بأنني أرى أن المسألة مسألة القبعة خاصة.

جلس الجميع. اتخذ فاسيا مكانًا له قرب ليزانكا، وقعدت المرأة العجوز إلى جانب أركادي إيفانوفتش. ودار الحديث، برهن أركادي إيفانوفتش على أنه في مستوى الموقف. إنه ليسرني أن أنصفه. ما كان ينتظر أن يكون لبقًا هذه اللباقة كلها. فبعد أن قال فاسيا بضع كلمات أخذ يتحدث بطريقة رائعة عن جوليان ماستاكوفتش، المحسن إليهم، وبلغ حديثه من الحسن والذكاء أن الموضوع لم يستنفد حتى بعد انقضاء ساعة من الزمان.

ليتكم رأيتم كم بلغ أركادي إيفانوفتش من اللباقة والرهافة في وصف بعض خصائص جوليان ماستاكوفتش، وهي خصائص تتصل بفاسيا اتصالًا مباشرًا أو غير مباشر، لذلك سُحرت العجوز بكلام أركادي؛ حتى لقد اعترفت بذلك لفاسيا: نادته جانبًا وقالت له إن صديقه فتى فذ، وإنه من أحب الشباب إلى القلب، وإنه قوي وجاد على وجه الخصوص. فبلغ فاسيا من السرور بهذا الكلام حد أنه لم يستطع أن يمتنع عن الإنفجار ضاحكًا ضحك الفرح إلا في كثير من العناء. لقد تذكر كيف استطاع أركاشا «القوي جدًا» أن يقلبه على سريره مفتولًا منذ نصف ساعة.

وبعد ذلك غمزت العجوز الطيبة فاسيا طالبة منه أن يلحق بها إلى الغرفة المجاورة. يجب أن نعترف أنها بهذا قد مكرت بابنتها ليزانكا، ولا شك أنها قد غدرت بها، من فرط طيبتها، ذلك أنها قررت أن تظهر فاسيا، خفية، على الهدية التي أعدتها له ليزانكا بمناسبة عيد رأس السنة. إن الهدية عبارة عن محفظة خيطت بها لآلئ دقيقة وقصب مذهب، وازدانت برسم بديع خلاب. فمن جهة ترى صورة وعلٍ يثب، صورة جميلة تشبه الوعل كثيرًا، ومن جهة أخرى تُرى صورة جنرال شهير، وهي صورة جميلة أيضا تشبه الجنرال كثيرًا. ولن أتكلم عن حماسة فاسيا حين رأى الهدية.

وفي أثناء ذلك، فإن الذين لبثوا في الصالون لم يضيعوا وقتهم سدى. اقتربت ليزانكا من أركادي إيفانوفتش، وأمسكت كلتا يديه تشكره شكرًا حارًا. فاستطاع أركادي إيفانوفتش أن يفهم أخيرًا أن الأمر يتعلق مرة أخرى بصديقه العزيز فاسيا. كانت ليزانكا تبدو منفعلة انفعالًا شديدًا. لقد سمعت عن أركادي إيفانوفتش أنه شديد

الإخلاص لخطيبها، وأنه يحبه كثيرًا، وأنه يعتني به عناية كبيرة، وأنه بنصائحه الحكيمة يسدد كل خطوة من خطواته، وأنها، هي ليزانكا، لا يسعها إلا أن تعبر له عن عظيم امتنانها وعميق شكرها. وأنها لتأمل أن يحبها أركادي إيفانوفتش هي أيضًا، وأن يخصها بجزء يسير من حبه لفاسيا، ثم أخذت تلقي عليه الأسئلة، تريد أن تعرف هل يعنى فاسيا بصحته، وأعربت عن بعض مخاوفها من فرط الحماسة والحرارة في طبعه، ومن جهله بالناس والحياة من حوله. وصرحت بعد ذلك أنها ستسهر عليه في كثير من الاهتمام، وأنها ستحميه وستقوم بتدليله، وأنها أخيرًا تأمل من أركادي إيفانوفتش أن لا يتركهما، بل تأمل منه أيضًا أن يقيم معهما.

صاحت تقول بسذاجة وهي في غمرة من الحماسة:

- لن نكون نحن الثلاثة إلا واحدًا.

وكان لا بد من الانصراف مع ذلك، حاولوا منعهما من الانصراف طبعًا، ولكن فاسيا صرّح بلهجة قاطعة أن بقاءهما مستحيل. وأكد أركادي إيفانوفتش قول صاحبه. وكان طبيعيًا أن يسأل أهل الدار عن سبب ذلك، فسرعان ما عرفوا أن هناك عملًا عهد جوليان ماستاكوفتش إلى فاسيا بإنجازه، وهو عمل مستعجل، خطير غاية الخطورة، يجب الفراغ منه بعد غد في الصباح، وأن فاسيا لم يكمل هذا العمل حتى الآن، بل لقد أهمله إهمالًا تامًا، فلما سمعت الأم هذا الكلام أطلقت صرخة كبيرة. أما ليزانكا فقد ظهر في وجهها الجزع والهلع، وأخذت من فرط قلقها تحث فاسيا على الانصراف. غير أن القبلة الأخيرة لم تفقد من ذلك شيئًا غير الطول، أما حرارتها فلم تنقص.

ما إن خرج الصديقان حتى أخذا يتبادلان التعبير عن مشاعرهما وانطباعاتهما، وذلك أمر طبيعي على كل حال. فأما أركادي إيفانوفتش فقال إنه جنَّ حبًا بليزانكا... وهل غير هذا الصديق المحفوظ، فاسيا، يمكن أن يُسرَّ إليه صديقه بذلك؟ وكذلك كان صرح أركادي لفاسيا بكل شيء، دون أي تحرج. فضحك فاسيا كثيرًا، وأظهر سروره بذلك وابتهاجه به، بل أضاف أن هذا حسن جدًا، فإن صداقتهما ستقوى الآن مزيدًا من القوة.

قال أركادي إيفانوفتش:

- هل فهمت يا فاسيا؟ إنني أحبها بقدر ما أحبك. ستكون ليزانكا ملاكي الحارس، كما هي ملاكك الحارس، لأن سعادتكما سترتد إليَّ، فتبث الدفء وتشيع الحرارة في نفسي. ستكون لي ربة البيت، وستثوي سعادتي على كفيها، أرجو أن تقودني كما تقودك أنت، أرجو أن توجهني كما توجهك أنت. لن تكون صداقتي لها الآن إلا صداقة واحدة. أنتما في نظري واحد. سيكون لي بعد اليوم صديقان أحبهما لا صديق واحد...

قال أركادي ذلك ثم صمت وقد غلبه الإنفعال. شعر فاسيا باضطراب شديد في أعماق نفسه. الحق أنه لم يكن يتوقع تصريحًا كهذا التصريح من أركادي إيفانوفتش. لقد كان أركادي لا يجيد الكلام كثيرًا، وكان يبدو عدوًا لكل نوع من أنواع

الاسترسال في الأحلام، أما الآن، فقد أخذ يحلم، وإن أحلامه لمن أكثر الأحلام إشراقًا وتفاؤلًا.

وتابع أركادي كلامه يقول:

- سوف ترى كم أرعاكما وكم أعتني بكما كليكما! أولًا سأكون عراب جميع أولادك... ثم يا فاسيا يجب الإهتمام بالمستقبل!... يجب شراء أثاث واستئجار مسكن... ويجب الحرص على أن يضم المسكن ثلاث غرف صغيرة، إثنان لكما وواحدة لي. سوف أشرع في البحث عن مسكن منذ الغد يا فاسيا. سأنظر في كل مكان إلى اللافتات الصغيرة الملصقة على أبواب العمارات... ثلاث غرف؟ بل تكفي اثنتان لا نحتاج إلى أكثر من غرفتين... وإني لأعتقد يا فاسيا أن كلامي اليوم كان سخفًا: سوف نملك مالًا كافيًا! لقد أدركت منذ رأيت نظرتها أن ما تملكه من مال يكفينا! سيكون كل شيء لها! ما أكثر ما سنعمله كلانا يا فاسيا، حقًا يا فاسيا.... تستطيع أن نجازف بخمسة وعشرين روبلًا أجر المسكن... ذلك أن المسكن يا صاحبي هو الأمر الأساسي! غرف جميلة... ذلك يجعل الإنسان فرحًا متفائلًا. ثم إن ليزانكا ستكون هي أمينة الخزنة لنا: ما من قرش واحد سيبذّر! هل تعلم أنني لن أضع قدمي بعد الآن في دكان بائع الخمور؟ من تحسبني؟ لا... لن أضع قدمي في دكانه بحال من الأحوال، ثم هناك الترقية والمكافآت، لأننا سنعمل في جد واجتهاد... تصور (وهنا ضعف صوت أركادي إيفانوفتش وتحطم من شدة الإنفعال)، تصور أن يحصل كل منا فجأة على مكافأة تبلغ ثلاثين روبلًا أو خمسة وعشرين! كلما حصلنا على زيادة ما اشترينا بها تارةً قبعة صغيرة، وتارةً وشاحًا، وتارةً أجربة، وهكذا دواليك... ويجب عليها حتمًا أن تحيك لي عصبة للعنق... انظر إلى عصبتي هذه ما أبشعها: لقد اصفر لونها و انسلّت خيوطها... لقد فضحتني اليوم، هذه العصبة... وأنت أيضًا فضحتني يا فاسيا! اخترت اللحظة غير المناسبة لتقديمي إليها، قبل أن أنضو عني لفعتي! على كل حال، ليس لهذا من قيمة!... لاحظ يا فاسيا أن شراء الفضيات سيقع على عاتقي أنا. فعلًا.. لا بد أن أهدي إليكما شيئًا... هذا واجبي... الشرف يقضي بذلك!... ولن يطول أمر حصولي على المكافأة... هل تظن أنهم سيعطونها سكوروخودوف! هه! ثم إن هذا اللقلق لن يتخلف عن دفعها إليَّ متى أردت. سأشتري لكما يا صاحبي ملاعق من فضة، وسكاكين جيدة (ليست من فضة طبعًا، ولكن متينة)، وصديرة... أعني صديرة لي أنا، لأنني سأكون وصيفكما... ولكن عليك الآن يا صاحبي أن تشد عزيمتك، وسأكون اليوم وغدًا، وطوال هذه الليلة، واقفًا وراءك أحمل عصا... سوف أجعلك تفطس من كثرة العمل. يجب إنجاز العمل يا فاسيا، يجب إنجازه بأقصى سرعة يا صاحبي! حتى إذا فرغت منه عدنا نسهر عندهم، وسعدنا بذلك كلانا!... سنلعب هناك لعبة اللوتو... هكذا سنقضي سهراتنا... آه ما أحلى هذا! لكم يحز في نفسي أنني لا أستطيع معاونتك في عملك! لشد ما أتمنى لو أستطيع أن آخذه عنك، واكتبه لك! لماذا ليس خطنا واحدًا أيضًا؟

قال فاسيا:

- نعم، نعم... يجب أن نحث الخطى! أحسب أنها الحادية عشرة الآن... يجب أن نحث الخطى.. إلى العمل!

إن فاسيا كان إلى ذلك الحين يبتسم تارةً، ويحاول أن يقاطع تدفق صديقه بملاحظة فرحة تارةً أخرى، أي كان متحمسًا تحمسًا كاملًا، وقد صمت فجأة بعد أن قال ذلك الكلام، أصبح كالأخرس لا ينطق بحرف وأخذ يفذ الخطى كأنه يركض ركضًا حتى يصل إلى مسكنه بأقصى سرعة. لكأن خاطرًا مشؤومًا قد راوده على حين فجأة، وسقط عن رأسه المحترق كتلة من ثلج، فانقبض صدره انقباضًا أليمًا.

شعر أركادي إيفانوفتش من ذلك بقلق. لقد أصبح فاسيا لا يكاد يجيب على أسئلته المستعجلة، فهو يكتفي بكلمة واحدة قد لا تمت إلى موضوع السؤال بصلة من الصلات في بعض الأحيان، بل قد لا يزيد على أن يطلق صوت تعجب.

هتف أركادي أخيرًا:

- ولكن ماذا دهاك يا فاسيا؟ هل يمكن أن تستبد بك الهموم إلى هذا الحد؟

- حسبك يا صاحبي، حسبك ثرثرة.

كذلك قال فاسيا بلهجة حانقة بعض الحنق.

فقاطعه أركادي يقول:

- لا تهتم... لقد لاحظت أنا نفسي أنه يتفق لك أحيانًا أن تنسخ صفحات أكثر في وقت أقصر... فأي ضير في هذا؟ إنك تقدر على ذلك... في وسعك أن تكتب بسرعة إذا اقتضى الأمر... ليس من الضروري أن تجوِّد نسخ النص بخط رائع... سوف تستطيع إنجاز العمل... قد تكون الآن مضطربًا بعض الإضطراب. ذاهلًا بعض الذهول، فالعمل يبدو لك أصعب وأشق.

لم يجب فاسيا بشيء، بل اكتفى بأن تمتم بين أسنانه ببعض الكلام، ووصل الشابان مسكنهما وهما في حالة عصبية ثقيلة.

انكبَّ فاسيا على العمل فورًا. وصمت أركادي إيفانوفتش. خلع ثيابه ساكنًا ورقد على سريره لا يحول بصره عن فاسيا. إنه يشعر بنوع من الخوف يغزو نفسه. تساءل أركادي وهو ينظر إلى وجه فاسيا الشاحب وإلى عينيه الملتمعتين وإلى حركاته التي تدل على قلق محموم: «ماذا به؟ إن يديه ترتعشان... أليس من الخير أن أنصحه بأن يرتاح ساعتين؟.. لا شك أن قليلًا من النوم سيريحه».

أنجز فاسيا كتابة صفحة. ورفع عينيه عرَضًا إلى ناحية صديقه، فلم يلبث أن خفض جفنيه وعاد يتناول القلم.

قال أركادي إيفانوفتش فجأة:

- اسمع يا فاسيا! ألا تعتقد أن قليلًا من النوم ينفعك الآن؟ إن مظهرك يدل على أن بك حمّى....

ألقى فاسيا على أركادي نظرة متجهمة، بل وحانقة، ولم يقل شيئًا.

- عليك بشيء من الراحة يا فاسيا!... فيم هذا العناد؟

ظهر على فاسيا فجأة أنه غيَّر رأيه. فقال:

- ما رأيك في تناول قليل من الشاي؟

- لماذا؟

لأسترد قواي. لا أريد أن أنام. لن أنام. سأظل أكتب طول الوقت. ولكنني أتمنى أن أتنفس قليلًا بشرب قدح من الشاي، فلعل هذا أن يبدد ما أنا فيه من حالة عصبية.

- طيب يا صاحبي... فكرة عظيمة.. ذلك بعينه ما كنت أريد أن أقترحه عليك! يدهشني أن هذه الفكرة لم تخطر ببالي.. ولكن مافرا لن تنهض بحال من الأحوال. يستحيل إيقاظها في مثل هذه الساعة!

- نعم، صحيح...

- لا ضير... سأضع السماور بنفسي! ما أنا بالغر على كل حال.

بهذا هتف أركادي إيفانوفتش ناهضًا عن سريره بوثبة. وأسرع إلى المطبخ يتحرك حول السماور. واستمر فاسيا يكتب أثناء ذلك. وهرع أركادي إيفانوفتش يرتدي ثيابه ويركض إلى الخباز حتى يستطيع فاسيا أن يقتات لليل. فما انقضى ربع ساعة إلا وكان السماور على المائدة يتصاعد منه البخار. صب الصديقان الشاي. ولكنهما لم يتوصلا إلى الإنخراط في حديث. كان فاسيا يبدو ذاهلًا. وفجأة قال كمن ثاب إلى نفسه:

- نعم... يجب أن أذهب غدًا لتقديم تمنياتي بمناسبة عيد رأس السنة.

- ما أنت في حاجة إلى ذلك.

- بل لا بد من ذلك يا صاحبي.

- ولكنني سأوقِّع عنك لدى الجميع! لا تهتم! غدًا ستعمل. لو كنت في محلك لعملت اليوم حتى الساعة الخامسة، ثم نمت. وإلا فما عسى تكون حالتك غدًا. وسوف أوقظك في الساعة الثامنة.

قال فاسيا وقد اقتنع نصف اقتناع:

- ولكن هل يليق أن توقِّع عني؟

- لمَ لا؟ الناس جميعًا يفعلون ذلك.

- مع ذلك أخشى أن...

- ولكن ماذا تخشى؟

- لا أعارض أن توقِّع عنّي لدى غيره... أما لديه هو، لدى جوليان ماستاكوفتش... فذلك.. لاحظ أنه المحسن إليَّ يا أركاشا... فماذا يكون وضعي لو لاحظ أن التوقيع ليس توقيعي؟

- لو لاحظ... إنك لغريب الأطوار حقًا يا فاسيوك! كيف يستطيع أن يلاحظ ذلك؟ أنت تعلم أنني أقدر أن أوقع اسمك بتقليد خطك تقليدًا تامًا. سوف أرسم توقيعك نفسه، توقيعك نفسه تمامًا، أحلف لك. لن يلاحظ أحد شيئًا، أنا أضمن لك هذا.

أفرغ فاسيا قدحه بسرعة دون أن يجيب، ثم هز رأس علامة الشك والريب.

- فاسيا! المهم هو أن تنجح في إنجاز العمل! ولكن ما بك يا فاسيا؟ هل تعلم أنك تخيفني؟ لن أرقد في فراشي يا فاسيا! لن أستطيع أن أنام. أرني كم صفحة بقي عليك أن تنسخ.

ألقى فاسيا على أركادي نظرة انقبض لها صدره انقباضًا شديدًا، حتى لم يستطع أن يحرك لسانه. فقال أركادي:

- ماذا بك يا فاسيا؟ لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

- أعتقد يا أركادي أنني سأذهب أهنئ جوليان ماستاكوفتش رغم كل شيء.

قال أركادي وهو يرمق صاحبه بنظرة تدل على القلق:

- لك ما تشاء... افعل ما دمت تحرص على ذلك. ولكن اسمع يا فاسيا عجل كتابتك قليلًا. يمينًا لست أسدي إليك نصيحة سيئة. ألم يقل جوليان ماستاكوفتش مرارًا إن ما يحبه في خطك أكثر من أي شيء آخر هو أنه خط مقروء؟ إنه ليس مثل سكوروبليخين الذي يتطلب خطًا مقروءًا وجميلًا في آن واحد!... لا لشيء إلا ليخطف الورقة كيفما اتفق، ثم يحملها إلى أولاده من أجل أن يتمرنوا على حسن الخط بإعادة نسخها... كأن هذا الأحمق لا يستطيع أن يشتري لهم دفاتر تمرين على حسن الخط... وليس كذلك جوليان ماستاكوفتش، فهو لا يطلب إلا شيئًا واحدًا هو أن يكون الخط مقروءًا، مقروءًا!... فلماذا تصدع رأسك إذن، وترهق نفسك من أمرها عسرًا؟ حقًا فاسيا... لا أعرف ماذا أقول... بل إنني لأخشى أن... فاسيا... إن حزنك يهدني هدًّا رهيبًا!

قال فاسيا:

- الأمر بسيط... الأمر بسيط.

ثم خارت قواه، فتهالك على كرسيه.

هبَّ أركادي يتحرك حوله:

- هل تريد ماء؟ فاسيا! فاسيا!

قال فاسيا، وهو يشد على يده:

- دعني يا أركادي... ليس بي شيء. كل ما هنالك أنني حزين قليلًا يا أركادي... وأنا نفسي لا أعرف لحزني هذا سببًا. دعنا نتحدث في أمر آخر... لا تذكِّرني...

- هدىء نفسك يا فاسيا، ناشدتك الله... هدىء نفسك! لسوف تنجز عملك، أحلف لك. وهبك لم تنجزه، فأين الكارثة في هذا؟ أفي الأمر جريمة؟

- أركادي!

نطق فاسيا بذلك، ونظر إلى صديقه نظرة فيها من التعبير ما جعل أركادي يرتعش، لأنه لم ير صديقه في يوم من الأيام نهبًا لقلق يبلغ من الشدة.

وتابع فاسيا يقول:

- أركادي... لو كنت وحيدًا، كما كنت كذلك في الماضي... لا... ليس هذا ما أردت أن أقوله... إنني أشعر دائمًا بالحاجة إلى أن أفضي إليك بما يعتلج في نفسي، وأن أبوح لك بكل شيء، كما يبوح صديق لصديقه... ولكن فيم إقلاقك وإزعاجك؟ بعض الناس، يا أركادي، قد وهب لهم في هذه الحياة شيء كثير، بينما لم يوهب لغيرهم، مثلي أنا، إلا أن يقوموا بمهمة هيئة الشأن، قل لي: ما عساك تفعل لو كان عليك أن تبرهن على امتنانك، على شكرك، ثم رأيت نفسك عاجزًا عن ذلك؟

- لا أفهمك يا فاسيا!

تابع فاسيا يقول بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه:

- لم أكن في يوم من الأيام عاقًا ينكر الجميل، ولكنني عاجز عن التعبير عن كل ما أشعر به... ذلك يا أركادي... أمر يشعرني بأنني عاق في الواقع، وهذا بعينه هو ما يقتلني قتلًا.

- ما هذا الكلام يا فاسيا؟ أأنت تظن حقًا أن كل امتنانك يجب أن يكون بتقديم منسوختك في المهلة المحددة؟ هلا راقبت نفسك يا فاسيا؟ ما هذا الذي تقوله؟ أبهذا يعبِّر المرء عن شكره؟

صمت فاسيا فجأة محملقًا في أركادي، كأن هذه الحجة التي لم يكن يتوقعها قد بددت شكوكه، حتى لقد ابتسم، ولكن وجهه لم يلبث أن استرد تعبيره عن التفكير.

رأى أركادي في هذه الإبتسامة دليلًا على أن جميع المخاوف قد زالت، ورأى في الهَمِّ الذي أعقب الإبتسامة دليلًا على أن صاحبه قد اتخذ قرارًا جديدًا، فابتهج لذلك ابتهاجًا عظيمًا.

قال فاسيا:

- طيب يا أركاشا، إذا اتفق أن استيقظت، فالق نظرة عليَّ. لسوف يكون الأمر كارثة إذا نمت. والآن سأكب على العمل. أركاشا!

- ماذا؟

- لا... لا شيء... وإنما أردت...

استقر فاسيا على كرسيه صامتًا، ورقد أركادي على فراشه، ولم ينطق هذا ولا ذاك بكلمة على جماعة كولومنا، ولعلهما كانا يشعران كلاهما بأنهما آثمان لأنهما «بذَّرا» في غير أوان التبذير. نام أكادي بعد قليل، وهو ما يزال قلقًا على فاسيا. وما كان أشد دهشته حين لم يستيقظ إلا بعيد الساعة السابعة كان فاسيا نائمًا على كرسيه،

ممسكا ريشته بيده. إنه أصفر الوجه متعب. وكانت الشمعة قد ذابت إلى النهاية. وفي المطبخ كانت مافرا تتحرك حول السماور.

صاح أركادي مروعًا:

- فاسيا، فاسيا، في أية ساعة نمت؟

فتح فاسيا عينيه، ونهض عن كرسيه بوثبة، قائلًا:

- إذن لقد نمت مع ذلك.

وأسرع إلى أوراقه، ولكن كل شيء كان على خير حال، فلا يقع حبر، ولا بقع دهن من الشمعة.

قال فاسيا:

- أظن أنني نمت في نحو الساعة السادسة. ما كان أشد البرد في الليل! سنشرب الشاي، ثم أستأنف العمل.

- هل ارتحت قليلًا؟

- نعم أشعر الآن بتحسن.

- عامًا سعيدًا يا عزيزي فاسيا.

- صباح الخير يا صاحبي... عامًا سعيدًا لك أيضًا.

وتعانق الصديقان. كانت ذقن فاسيا ترتجف، وكانت الدموع تترقرق في عينيه. وأركادي لا يقول شيئًا. إنه يشعر بمرارة شديدة. تناول الصديقان الشاي على عجل.

- أركادي! قررت أن أذهب إلى جوليان ماستاكوفتش بنفسي.

- ولكنه لن يعلم بذلك.

- ضميري يدفعني إلى ذلك يا صاحبي.

- أنت تسهر في سبيله، وترهق نفسك من أجله... أما أنا يا صاحبي، فسأذهب لحظة إلى هناك...

- إلى أين؟

- إلى أسرة أرتمييف، أقدم لهم تمنياتي وتمنياتك.

هتف فاسيا يقول:

- ما أحسنها فكرة يا صديقي العزيز. سأبقى أنا في البيت وتذهب أنت إليهم... فكرة رائعة... لا عن إهمال مني لهم طبعًا، بل لأنني أعمل. انتظر، سأحمِّلك إليهم رسالة صغيرة.

- على مهلك يا عزيزي! سأغسل وجهي أولًا وأحلق ذقني وأنظف ردائي. هل رأيت يا صاحبي فاسيا؟ لسوف نكون مبتهجين سعيدين مع ذلك! قبلني يا صاحبي!

- ليت هذا يكون صحيحًا يا صديقي!

وهنا دوى صوت على فسحة السلم أمام الباب:

- هل هنا يسكن السيد الموظف شومكوف؟

أجابت مافرا، وهي تدع الزائر أن يدخل:

- نعم هنا يا سيدي.

صاح فاسيا وهو يهرع نحو حجرة المدخل:

- ماذا هناك؟ من؟

- يومك سعيد يا فاسيلي بتروفتش. يشرفني أن أتمنى لك عامًا طيبًا سعيدًا.

كذلك قال صبي لطيف أسمر، في نحو العاشرة من عمره، مضفور الشعر. وأضاف الصبي يقول:

- أختي تبعث إليك بتحياتها، وكذلك ماما. وقد كلفتني أختي بأن أقبلك.

أنهض فاسيا الرسول الصغير في الهواء، وطبع قبلة طويلة حارة على شفتيه اللتين تشبهان كثيرًا شفتي ليزانكا. ثم قال لصاحبه أركادي وهو يمد إليه بتيا:

- قبِّله يا أركادي.

فانتقل الصبي، دون أن يلامس الأرض، إلى الذراعين القويتين الحانيتين، ذراعي أركادي إيفانوفتش.

- هل لك بقليل من الشاي يا حبيبي؟

- شكرًا كثيرًا. لقد أفطرنا، استيقظنا في ساعة مبكرة هذا الصباح. ماما وأختي ذهبتا إلى الكنيسة، أختي غسلتني وألبستني ومشطتني خلال ساعتين. وخاطت ما تفتق أمس من سروالي في الشارع حين لعبت مع ساكشا بالثلج نتراشق بكراته....

- هكذا إذًا؟

- نعم، ألبستني وجمَّلتني لأجيء إليك. ثم قبلتني مائة مرة وقالت لي: «إذهب إلى فاسيا، وهنئه بعيد رأس السنة، وأسأله هل هو راضٍ سعيد، وهل نام نومًا هادئًا مريحًا... وطلبت مني أن أسألك أيضًا هل أنجزت العمل الذي... ولكني سجلت ما طلبته مني على ورقة صغيرة (هكذا قطع الفتى كلامه ثم أخرج من جيبه ورقة وقرأ):«... العمل الذي كان يشغل بالك».

- نعم... نعم، سينجز.... سينجز حتمًا! لا تنسى أن تقول لها إنني سأنجزه قطعًا، بشرفي!

- نعم... ها... كدت أنسى... حملتني أختي إليك رسالة قصيرة وهدية... كدت أنسى أن أعطيكهما!

- أين هما يا حبيبي؟ أين هما؟ شكرًا.. اسمع يا أركاشا ماذا تقول لي ليزانكا الغالية... أنت تعلم أنني رأيت هناك أمس محفظة ستهدى إليّ. إن المحفظة لما يكتمل شغلها بعد. لذلك تقول ليزانكا: «أبعث إليك بخصلة من شعري. أما الهدية الأخرى فسوف تستلمها بعد مدة قصيرة»... أرأيت يا صاحبي؟

قال فاسيا ذلك وقد جُنَّ فرحًا، وهو يُري صديقه خصلة شعر أسود رائع. قبل فاسيا خصلة الشعر، ثم أودعها جيبه قرب القلب.

قال أركادي بلهجة حازمة:

- سوف أوصي لك بنيشان لهذه الخصلة.

قال الصبي:

- وسنأكل شواءً ومخًا في الغد. وقد أرادت أمي أن تصنع شيئًا من البسكويت... ولكنها لم تجد دقيقًا (كذلك استرسل الصبي في كلامه بعد أن تردد قليلًا وهو لا يعرف كيف يكمل ثرثرته).

صارح أركادي إيفانوفتش:

- ما ألطف هذا الصبي. أنت يا فاسيا أسعد أهل الأرض طرًا، ما في ذلك ريب!

شرب الزائر الصغير نصيبه من الشاي، وأخذ من فاسيا رسالة إلى أخته، وقبله ألف مرة، ثم انصرف خفيف الخطى مشرق المزاج كما جاء.

قال أركادي فرحًا:

- هل رأيت يا صاحبي؟ إن الأمور جميعها تجري على ما نحب. فلا تحزن وخاصة لا تدع لخور العزيمة أن يتسرب إليك! إلى الأمام! أنجز عملك يا فاسيا! سأعود في الساعة الثانية. أذهب إليهم أولًا، ثم أذهب إلى جوليان ماستاكوفتش.

- إلى اللقاء.

- انتظر يا صاحبي... قل لهم... الخلاصة.. قل لهم ما تستحسن أن تقوله.. وقبِّلها.. وستحكي لي كل شيء بعد ذلك يا صاحبي، ستصف لك كيف جرت الأمور...

- طبعًا. ثم إنني أعرف الآن ماذا أصابك أمس: إن السعادة هي التي شوشتك ذلك التشويش كله.. منذ أمس حالتك غير طبيعية... إنك لما تتخلص من مشاعر الأمس. أما الآن فقد انتهى كل شيء. عد إلى هدوئك يا فاسيا.. إلى اللقاء.. إلى اللقاء!...

افترق الصديقان أخيرًا. ظل أركادي إيفانوفتش ذاهلًا طوال الصباح. كان لا يفكر إلا في فاسيا، إنه يعرف طبيعته الضعيفة السريعة إلى الهيجان.

قال أركادي لنفسه: «نعم لقد أقلقت هذه السعادة نفسه إقلاقًا كاملًا ذلك واقع لا شك فيه. وما أشد ما أحزنني أيضًا. إن الإنسان قادر على أن يجعل من أيسر الأمور مأساة ضخمة! ما هذه الحمى التي انتابته؟ لا.. لا.. يجب إنقاذه.. يجب إنقاذه حتما».

كذلك كان يردد أركادي دون أن يلاحظ أن همومًا منزلية صغيرة يسيرة قد تضخمت في قرارة نفسه هو حتى صارت في نظره أشبه بكارثة!

لم يدخل أركادي حجرة حاجب جوليا ماستاكوفتش إلا في الساعة الحادية عشرة، ليضيف اسمه المتواضع إلى العمود الضخم الذي تؤلفه أسماء شخصيات مرموقة تغطي ورقة بكاملها مبقعة بالحبر. فما كان أشد دهشته حين رأى فوق توقيعه توقيع فاسيا شومكوف بخط يده شعر أركادي باضطراب شديد. «ماذا يحدث في رأسه؟» كذلك تساءل وهو يزداد احمرارًا من فرط القلق. اختفت آماله المشرقة. أدرك أن هناك نازلة تهم أن تقع، ولكن أين عساها تقع وكيف؟

ووصل إلى كولومنا متجهم النفس. كان يبدو في أول الأمر خائفًا على فاسيا حقًا. أسرع يعود إلى البيت راكضًا. ولكن ها هو ذا، على جليد نهر نيفا، يصطدم بشومكوف، أنفًا بأنف كان هذا يركض هو أيضًا.

صاح أركادي يسأله:

- إلى أين أنت ذاهب؟

وقف فاسيا وقفة من قبض عليه متلبسًا بالجرم، وقال:

- خـ.. خرجت أقوم بجولة قصيرة.

- لم تستطع أن تستقر في مكانك، هه؟ أنت ذاهب إلى كولومنا أليس كذلك؟ يا فاسيا.. يا فاسيا! ثم لماذا ذهبت إلى جوليان ماستاكوفتش؟

لم يجب فاسيا بشيء... وفجأة حرك يده بإشارة يأس وقال:

- أركادي.. لا أعرف ماذا يحدث في نفسي.. إنني..

- هيا، هيا يا فاسيا... أنا أعرف، أنا أعرف ماذا. هدىء نفسك. أنت مهتاج مضطرب منذ أمس. وكيف يمكن أن يكون المرء غير ذلك لو كان مكانك؟ ولكنهم جميعًا يحبونك، وهم جميعًا يدارونك، وستنجز عملك حتمًا، ستنجزه، أحلف لك. إن في ذهنك وساوس غريبة، ومخاوف غامضة... هل أدري؟

- لا.. لا شيء...

- هل تتذكر يا فاسيا؟ لقد مررت بحالة نفسية كهذه حين حصلت على تعيينك. فقد جننت يومئذ فرحًا، فأخذت تجوِّد خطك أكثر مما اعتدت أن تجوده، فإذا أنت خلال ثمانية أيام لا تفعل أكثر من أن تفسد عملك! والآن يحدث لك هذا الشيء نفسه!

- نعم، نعم يا أركادي، ولكن الأمر الآن مختلف!

- كيف.. مختلف.

- لا.. لا.. لا قيمة لهذا... لنعد الآن إلى المنزل!

- ألا تريد أن تذهب إليهم؟

- لا يا صاحبي.. هل أستطيع أن أدخل عليهم بهذه السحنة؟ لقد غيّرت رأيي... إذا لم أستطع أن أبقى في البيت، فلأنك لم تكن معي، أما وقد عدت، فسأستأنف الكتابة! هيا بنا!

سارا بعض الوقت صامتين. وكان فاسيا مسرع الخطو.

قال أركادي إيفانوفتش:

- ألا تريد أن تسألني عن أخبارهم؟

- ها... نعم، نعم.. كيف كان الحال؟

- فاسيا... إنك تخيفني!

- لا.. لا.. لا شيء.. احك لي كل شيء، أرجوك، ألا تريد؟

قال فاسيا ذلك بصوت ضارع، كمن يريد أن يتحاشى الشروح المملة المضجرة.

تنهد أركادي إيفانوفتش. واضح أنه أصبح، وهو يتأمل فاسيا، لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يتجه.

روى أركادي لصديقه تفاصيل زيارته، فبدأ على فاسيا أنه يفيق من ذهوله، حتى لقد أصبح كثير الكلام. وتناول الصديقان غداءهما. وكانت الأم العجوز قد حشت جيوب أركادي إيفانوفتش بالبسكويت، فلما أخذ الصديقان يقضمانها انتعشت روحاهما وعاد إليهما مرحهما. وبعد الغداء، وعد فاسيا بأن ينام قليلًا حتى يستطيع السهر طول الليل. وها هو ذا يستلقي على فراشه فعلًا. وكان أحد الناس الذين لا يمكن أن تُرفض دعوتهم قد دعا أركادي إيفانوفتش في الصباح أن يجيء لشرب الشاي عنده. فافترق الصديقان. وقرر أركادي أن يعود إلى البيت بأقصى سرعة، في الساعة الثامنة إذا أمكن ذلك. بدت له الساعات الثلاث التى غاب أثناءها عن البيت كأنها سنين، واستطاع أن يتحرر أخيرًا فهرول يعود إلى المنزل، فلما دخل الغرفة لاحظ أنه ليس فيها نور ثم لم يجد فاسيا. فلما سأل مافرا قالت إنه ظل يكتب طوال الوقت، وإنه لم يرقد في فراشه، وإنه أخذ بعد ذلك يسير في الغرفة طولًا وعرضًا، ثم في نحو الساعة الواحدة، أسرع يخرج قائلًا إنه عائد بعد نصف ساعة. وختمت مافرا حكايتها بقولها: «وقد طلب مني أن أقول لك، متى رجعت، إنه خرج يتنزه قليلًا، وكرر هذا الطلب ثلاث مرات أو أربعًا».

قال أركادي لنفسه وهو يهز رأسه: «لا بد أنه عند أسرة أرتميف».

وبعد دقيقة نهض عن كرسيه بوثبة. لقد لمع في قلبه أمل. قال لنفسه: «غالب الظن أنه أنجز الكتابة، فلما لم يستطع بعد ذلك أن يبقى في البيت، هرع إلى هناك... ولكن لا.. لو صح ذلك لانتظرني... سوف ألقي نظرة على عمله».

أشعل شمعة وأسرع إلى مكتب فاسيا. لقد تقدم فاسيا في عمله؛ ويبدو أنه يوشك أن ينهيه. وفيما كان أركادي إيفانوفتش يريد أن يستمر في تحرياته، إذا بفاسيا يدخل فجأة...

صاح مذعورًا:

- أأنت هنا؟

صمت أركادي إيفانوفتش. لقد خاف أن يلقي أسئلة على فاسيا. وأخذ فاسيا، هو أيضًا، يقلب أوراقه خافضًا بصره وإلتقتْ نظرات التعبير عن الفاجعة الشابين أخيرًا. فكان في نظرات فاسيا من التعبير عن الفاجعة والضراعة ما جعل أركادي يرتعش. لقد فاض قلبه شفقة ورحمة.

صاح وهو يسرع إلى صديقه ويضمه بين ذراعيه.

- فاسيا عزيزي ماذا بك؟ ماذا حدث لك؟ صارحني... أصبحت لا أفهمك لا أفهم ما أنت فيه من حزن! ماذا بك يا عزيزي؟ ما سبب عذابك؟ قل لي كل شيء، لا تخف عني شيئًا. لا يعقل أن يكون هذا الأمر وحده هو الذي...

شد فاسيا جسمه إلى صاحبه، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة. كان حلقه يختنق، وكانت أنفاسه محبوسة.

- ما بك يا فاسيا؟ هلا انتهيت؟ أي شقاء حل بك؟ أنني لا أفهم يا فاسيا! قل لي ما الذي يقلقك هذا الإقلاق كله؟ أنت تعلم أنني في سبيلك، أستطيع أن... آه يا رب يا رب! (كذلك أخذ يردد أركادي وهو يمشي في الغرفة طولًا وعرضًا، يمسك تارة بشيء، ثم يمسك تارة أخرى بشيء آخر، كأنه يبحث لفاسيا عن دواء مباشر). سأذهب غدًا بنفسي إلى آخر. (كأنه يبحث لفاسيا عن دواء سريع) سأذهب غدًا بنفسي إلى جوليان ماستاكوفتش، فأتوسل إليه أن يمهلك يومًا آخر. سأشرح له كل شيء، كل شيء، إذا كان هذا هو ما يقلقك إلى هذا الحد حقًا...

صاح فاسيا وقد اصفر وجهه وترنح حتى ليكاد لا يستطيع الثبات على قدميه:

- إياك!

ثاب الفتى إلى رشده. كانت شفتاه تختلجان. أراد أن يقول شيئًا، ولكنه لم يفعل، بل اكتفى بأن شد على يد أركادي بحركة عصبية متشنجة. كانت يده باردة. وكان أركادي واقفًا أمامه وقد استبد به هم رهيب. ومرة أخرى نظر إليه فاسيا متفرسًا.

- فاسيا... ما بك يا عزيزي المسكين فاسيا؟ إنك تمزق قلبي يا عزيزي، يا صديقي البائس...

تمتم فاسيا يقول:

- لقد خدعتك يا أركادي.. لقد خدعتك! اغفر لي، سامحني... لقد كذبت عليك...

كذلك قال لأركادي مذعورًا مروعًا.

- أنظر!

قال فاسيا ذلك، وأخرج من الدرج ستة دفاتر ضخمة، شبيهة بالدفتر الذي كان ينسخه، ثم رماها واحدًا واحدًا على المائدة، وقد بدا على وجهه يأس شديد.

- ما هذا؟

- هذا هو العمل الذي يجب أن أفرغ منه بعد غد. وأنا لم أنجز الآن ربعه. لا تسألني كيف حدث هذا (كذلك تابع فاسيا كلامه يشرح من تلقاء نفسه الموضوع الذي يقلقه). أركادي، صديقي! لا أدري ما الذي أخذني عن نفسي... لكأنني أخرج الآن من حلم. لقد ضيعت ثلاثة أسابيع كاملة. كنت أذهب كل يوم... إليها... كان قلبي يتمزق... كنت أعاني عذابًا شديدًا... من عدم الثقة... ولم أستطع أثناء ذلك أن أكتب شيئًا... حتى لقد كانت الكتابة لا تخطر لي على بال. ولم أستيقظ إلا الآن، أي حين جاءتني السعادة.

قال أركادي إيفانوفتش بلهجة حازمة:

- فاسيا.. سوف أنقذك. فهمت الآن كل شيء. الأمر خطير. سوف أنقذك. اصغ إليّ: سوف أذهب إلى جوليان ماستاكوفتش غدًا. لن أتأخر عن الغد. بل اصغ إليّ. سوف أحكي له كل شيء. اسمح لي أن أفعل ذلك... سوف أشرح له كل شيء، سوف أشرح له كل شيء، مسترسلًا حتى النهاية. سوف أقول له كيف أنك تقتل نفسك.

قال فاسيا وقد جمده الرعب:

- هل تعلم أنك تقتلني منذ الآن؟

اصفر وجه أركادي إيفانوفتش ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه، فانفجر يضحك قائلًا:

- حقًا؟ هيا هيا يا فاسيا... ألا تستحي؟ اسمع: أنا أرى أنني أضايقك. وأنا أفهمك. أنا أعرف ما يجري في نفسك. لقد انقضى على سكنانا معًا خمس سنوات. أنت إنسان طيب القلب، مرهف الشعور، ولكنك ضعيف جدًا، ضعيف ضعفًا يدعو إلى اليأس. ليزافيتا ميخائيلوفنا لاحظت هي نفسها ذلك. وأنت فوق هذا إنسان حالم... وليس في ذلك خير أيضًا. فإذا واصلت سيرك على هذا النحو كنت ستتعرّض للجنون يا صاحبي، اسمع. أنا أعرف ماذا تريد. أنت تتمنى مثلًا أن يطير صواب جوليان ماستاكوفتش فرحًا، بل وأن يقيم حفلة راقصة، احتفالًا بزواجك. انتظر قليلًا. ها أنت ذا تصعر وجهك إذ ساءك أن آتي على ذكر جوليان ماستاكوفتش! طيب... دعنا منه. لاحظ مع ذلك أنني أحترمه كما تحترمه! ولكنك لن تستطيع أن تبرهن لي على نقيض ما أقول، ولن تستطيع أن تمنعني من الإعتقاد بأنك ترى أنه ما ينبغي أن يكون على وجه الأرض أشقياء ما دمت تتزوج أنت... صادق على ما أقول يا صاحبي... إنك تود أن أصبح، أنا خير صديق لك، رأسماليًا على حين فجأة، أن أملك ألف روبل، وتتمنى أن يتصافح جميع الناس الذين يكره بعضهم بعضًا في هذه الحياة الدنيا، فإذا هم يتعانقون في وسط الشارع، ثم إذا هم يجيئون يزورونك هنا... يا عزيزي، يا صديقي الطيب، لست أسخر منك... أبدًا.. ولكن الأمر كذلك. إنك تعرض عليَّ نظريات من هذا القبيل منذ زمن طويل، على تنوع في صور هذه النظريات!... فلأنك سعيد، تريد أن يصير جميع الناس سعداء بين عشية وضحاها. يؤلمك أن تكون وحدك سعيدًا. لذلك تبذل جهدًا كبيرًا من أجل أن تكون جديرًا بهذه

السعادة. لا شك أنك مستعد للقيام بعمل بطولي، لا لشيء إلا لترضي ضميرك!... طيب.. أنا أفهم أن تكون مستعدًا لتعذيب نفسك تعذيبًا روحيًا كبيرًا، معاقبة لنفسك على أنها خارت حيث كان ينبغي أن تنشط.. أو حيث كان ينبغي أن «تعترف بالجميل» على حد تعبيرك! فحين تتصور أن جوليان ماستاكوفتش سيصعر وجهه إذ يدرك أن الآمال التي عقدها عليك لم تكن في محلها تنهار قواك وتقلق قلقًا رهيبًا. إنك تتألم حين تتصور أنك ستسمع لومًا من فم الإنسان الذي تعده محسنًا إليك وأنك ستسمع هذا اللوم في لحظة يكون فيها قلبك طافحًا فرحًا وسعادة، وفي لحظة تكون فيها أنت لا تدري لمن تُظهر شكرك وتعبر عن امتنانك. ألست على حق! أليس الأمر كذلك؟

أخذ صوت أركادي إيفانوفتش يرتجف، فتوقف عن الكلام وتنفس تنفسًا قويًا.

وكان فاسيا ينظر إلى صديقه في رقة وحنان. وارتسمت على شفتيه إبتسامة.

وكان طيفًا من أمل قد مرَ بوجهه، فتشجع أركادي لهذه النتيجة، واستأنف كلامه يقول:

- اسمع يا فاسيا، ما ينبغي لجوليان ماستاكوفتش أن يمنع عنك الآن ما كان يحمله لك من عطف، أليس كذلك يا صديقي؟ أليست هذه هي المسألة؟ فإذا كانت هذ المسألة، فسأضحي أنا بنفسي (قال ذلك وهو يهب واقفًا)... سأذهب إلى جوليان ماستاكوفتش غدًا... ولكن لا تعارضني! ذلك أنك يا فاسيا تضخم خطأك فتجعله جريمة! مع أن جوليان ماستاكوفتش إنسان كبير النفس رحيم القلب. ثم إنه ليس مثلك أبدًا. سوف يصغي إلى كلامنا يا عزيزي فاسيا، فينقذنا من المأزق... هل هدأت الآن؟

شد فاسيا على يد أركادي والدموع في عينيه، ثم قال:

- طيب يا أركادي، دعنا من الحديث في هذا الموضوع الآن! لقد حُلّت المشكلة... لم أنجز العمل... طيب.. لم أنجزه... تأخرت.. هذا كل شيء. لا داعي إلى أن تزعج نفسك. سأذهب إليه بنفسي، فأشرح له الأمر... لقد هدأت نفسي الآن، واطمأن بالي اطمئنانًا كاملًا. ولكن لا تذهب إليه... أطعني..

هتف أركادي يقول فرحًا:

- فاسيا، عزيزي. أنا لم أقل ما قلته إلا استنادًا إلى كلامك نفسه. يسعدني أنك هدأت بالًا وطبت نفسًا. تذكر مع ذلك أنني إلى جانبك دائمًا مهما يحدث. إن فكرة تحدثي إلى جوليان ماستاكوفتش تخيفك... طيب... لن أكلمه أنا، بل تكلمه أنت ذاكرًا له كل شيء. تذهب إليه غدًا... أو تبقى أنت في البيت لتكتب، وأمضي أنا أستطلع الخبر اليقين في المكتب: هل الأمر مستعجل حقًا أو لا؟ هل يجب تسليم العمل في تاريخ محدد قطعًا؟ ما هي النتائج التي تترتب على تأخر قد يحدث؟ ثم أعود إليك بأقصى سرعة ممكنة أحمل إليك الخبر اليقين. هل رأيت الآن أن هناك أملًا قد لا يكون الأمر مستعجلًا. إن في وسعنا أن نتخلص من المأزق عندئذ في يسر. وقد لا يطلب إليك جوليان ماستاكوفتش تسليم العمل في اليوم المحدد له، إن كل شيء يكون عندئذ قد أنقذ.

هزّ فاسيا رأسه علامة الشك والريب، ولكنه ظل يلقي على صديقه نظرة شكر واعتراف بالجميل.

قال لاهثًا:

- دعنا من هذا الموضوع الآن! إنني ضعيف جدًّا، متعبٌ جدًّا، فلا أحب أن أفكر في هذا الموضوع قط. هلا تكلمنا في شيء آخر؟ ثم إنني أوثر أن لا أعمل الآن... لن أنسخ إلا صفحة أو صفحتين، أي إلى أن أبلغ فاصلًا ما.. اسمع يا أركادي، إنني أريد منذ مدة طويلة أن ألقي عليك هذا السؤال: كيف استطعت أن تعرفني هذه المعرفة الصحيحة الصادقة؟

وتساقطت دموع فاسيا على يدي أركادي.

قال أركادي:

- لو عرفت يا فاسيا مدى حبي لك وتعلقي بك لما ألقيت عليَّ سؤالًا كهذا السؤال.

- نعم يا أركادي أنا لا أعرف ذلك، لأنني... لأني أجهل لماذا بني هذا الحب كله. هل تعلم يا أركادي أن ما تحمله لي من حب قد عذبني كثيرًا؟ هل تعلم أنني في كثير من الأحيان، ولا سيما في المساء، حين أفكر فيك (وأنا أفكر فيك دائمًا لحظة أستلقي على فراشي لأنام). أهم أن أبكي وأشعر بارتجاف في قلبي لأنني... لأنني... لأنك تحبني هذا الحب كله، بينما أنا عاجز أن أفتح قلبي و أن أبرهن لك على امتناني.

- هل رأيت يا فاسيا ماذا أنت؟ هدئ نفسك إذن ها أنت ذا تضطرب اضطرابًا شديدًا من جديد! (لاحظ أركادي ذلك وهو يرتجف لذكرى المشهد الذي جرى ليلة البارحة في الشارع)

- دعك من هذا الكلام يا صاحبي! تريد مني أن أهدأ وأنا لم أكن في يوم من أيام حياتي أهدأ مني الآن ولا أسعد! لشد ما تمنيت أن أحكي لك كل شيء، ولكنني أخاف دائمًا أن أسبب لك ألمًا. فأنت تقلق عليّ، فتصيح وتخيفني... أنظر... حتى في هذه اللحظة أرتجف.. لا أدري لماذا؟ إليك ما أحب أن أقوله لك: يخيل إليّ أنني كنت في الماضي أجهل نفسي.. أما الآخرون فإنني لم أعرفهم ولم أفهمهم إلا منذ أمس. كنت حتى هذا اليوم لا أفهم... ولا أقدِّر.... كان قلبي جافًا يابسًا. إليك كيف حدث ذلك: أنا لم أستطع أن أحسن إلى أحد في يوم من الأيام، لأنني كنت عاجزًا عن أن أحسن إلى أحد... فحتى مظهري ليس فيه ما يبهج النظر.. ومع ذلك كان جميع الناس يحملون لي عاطفة طيبة! وأنت أولهم.. طبعًا.. أما أنا فلم يكن في وسعي أن أفعل شيئًا غير أن أصمت!

قال أركادي:

- ما هذا يا فاسيا؟ فاسيا... ما هذا؟

فقاطعه فاسيا بقوله، وهو لا يكاد يستطيع أن يلفظ كلماته من كثرة الدموع التي تخنق صوته:

- ماذا؟ لا شيء... أمس، كلمتك عن جوليان ماستاكوفتش. أنت تعلم أنه قاسٍ بل إنه قاتم النفس، وأنه قرعني عدة مرات. ولكن ها هو ذا يخطر بباله أمس أن يمازحني، وأن يكون لطيفًا معي، وأن يظهر طيبة قلبه، تلك الطيبة التي يخفيها إخفاءً عاقلًا حكيمًا عن الآخرين.

- طيب يا فاسيا!... إن دلّ هذا على شيء، فإنما يدل على أنك جدير بسعادتك.

- آه يا أركاشا لشدة ما أتمنى لو أستطيع إنجاز هذا العمل... لا... لا... إن سعادتي ستتحطم... أنا أوجس ذلك!... ولكن لا بسبب هذا (كذلك قاطع نفسه إذ لاحظ أن أركادي يختلس النظر إلى كومة الدفاتر المتكدسة على المائدة قناطير).. لا بسبب هذا.. هذا لا شيء.. ما هذا إلا ورق.. ترهات... هذه المسألة قد حلت.. أركاشا، لقد ذهبت إليها اليوم... لكنني لم أدخل. كان قلبي مثقلًا، يفيض حزنًا ومرارةً! لبثت أمام الباب بعض الوقت. كانت تعزف على البيانو فأنصت.. أرأيت يا أركادي؟ لم أجرؤ أن أدخل.

هكذا أنهى فاسيا كلامه بصوت خافت.

- ما بك يا فاسيا؟ إنك تنظر إليَّ نظرة غريبة.

- لا شيء.. لا شيء... أشعر بأنني مريض قليلًا.. ساقاي تصطكان ذلك لأنني سهرت طوال الليل. نعم، وإن شرارات خضراء تلتمع أمام عيني.. هنا إنما...

قال فاسيا ذلك مشيرًا إلى قلبه، ثم أغمي عليه.

ولما أفاق من غشيته أراد فاسيا أن يتخذ إجراءات حاسمة. كان يتهيأ لأن يُرقده في فراشه بالقوة، ولكن فاسيا احتج احتجاجًا عنيفًا. إنه الآن يبكي ويعض يديه ويصر إصرارًا قاطعًا على أن ينجز الصفحتين. فسمح له أركادي أن يقترب من المائدة حتى لا يُسرف في معارضته.

قال فاسيا وهو يجلس إلى مكتبه:

- اسمع.. عندي فكرة.. هناك أمل...

وابتسم فاسيا لصاحبه، فكان وجهه الشاحب يضيئه شعاع من أمل حقًا وتابع كلامه يقول:

- إليك ما عقدت النية عليه. لن أحمل إليه بعد غد إلا جزءًا... أما الباقي فسألفق من أجله حجّة ما.. أقول مثلًا أنه احترق أو أنه تبلل أو أنه ضاع، أو أقول إنني لم أستطع أن أكمله... ذلك أنني لا أستطيع أن أكذب... سأشرح له كل شيء بنفسي. هل تعلم؟ سأروي له كل شيء... سأقول له مثلًا: لم أستطع وكفى! سأحدثه عن حبي. لقد تزوج هو نفسه منذ زمن طويل. سوف يفهمني! طبعًا سأتكلم بهدوء، واحترام... وسوف يرى دموعي، فيتأثر قلبه.

- طيب.. اذهب إليه، قابله اشرح له.. ولكن لا فائدة من الدموع يا فاسيا! لماذا البكاء؟ أؤكد لك يا فاسيا أنك تثير في نفسي ذعرًا رهيبًا.

- نعم نعم، سأذهب إليه. أما الآن فدعني أكتب، دعني أكتب يا أركاشا. لن أسيء إلى أحد. ولكن دعني أكتب.

ارتمى أركادي على سريره. واضح أنه فقد اطمئنانه إلى فاسيا، وثقته به. إن فاسيا لن يتورع عن شيء.. لماذا طلب العفو، وكيف؟ ليست هذه المسألة في الواقع. المسألة هي أن فاسيا لم يف بإلتزامه، فهو يشعر من ذلك بأنه مذنب في حق نفسه. هو يشعر بأنه عاق مع القدر. يشعر أنه غير جدير بسعادته، فهذه السعادة هي التي تهز نفسه وتحطمها وتقلبها رأسًا على عقب. إنه لا يبحث إلا عن حجة لينحرف إلى هذا الإتجاه. إنه لما يثب من دهشته بالأمس. قال أركادي في داخله: «هذه هي المسألة. يجب أن نصالحه مع نفسه، إنه بسبيل تأبين نفسه».

وبعد أن اجتر أركادي إيفانوفتش المسألة طويلًا، قرر أن يذهب منذ الغد إلى جوليان ماستاكوفتش دون إبطاء، فيروي له كل شيء.

وكان فاسيا يكتب. واستلقى أركادي على السرير من جديد، وقد هدّه التعب. استلقى من أجل أن يتأمل في الأمر مرةً أخرى. فإذا هو ينام ثم لا يستيقظ إلا في الفجر.

فلما ألقى نظرة على فاسيا، رأى أنه ما يزال يكتب، فهتف يقول:

- هوه.. ألى الآن؟

وهبّ أركادي نحو صديقه فأحاطه بذراعيه وقاده إلى السرير بالقوة. كان فاسيا يبتسم وكانت أجفانه تطبق من شدة التعب. إنه لا يكاد يستطيع الكلام. قال:

- كنت أنوي من تلقاء نفسي أن أرقد، هل تعلم يا أركادي؟ عندي فكرة. سأنجز عملي. لقد استعجلت في الكتابة. ولكنني تعبت الآن، أيقظني في الساعة الثامنة...

وما كاد ينهي جملته حتى نام.

همس أركادي مخاطبًا مافرا التي كانت آتية بالشاي:

- إنه يطلب إيقاظه بعد ساعة. ولكن إياك أن توقظيه! فلينم عشر ساعات إذا أراد. هل فهمتِ؟

- فهمت يا سيدي.

- لا تحضري غداء ولا تحدثي ضوضاء. الضوضاء خاصة... حاذري الضوضاء... إذا سأل عني فقولي له إنني ذهبت إلى المكتب. هل فهمت؟

- فهمت يا سيدي... فلينم ما شاء أن ينام... ماذا يضيرني هذا. إن نوم سيدي يسرني... وأنا أحافظ على ما يملكه أسيادي. أما الفنجان الذي كسرته أمس فقرَّعتني من أجله، فلم أكسره أنا، بل كسرته القطة ماشكا. كل ما هنالك أنني لم أنتبه إليها... وحين طردتها كان قد فات الأوان.

- هست... اسكتي!

صرف أركادي الخادمة إلى المطبخ، وطلب منها المفتاح فأقفل به الباب، ثم ذهب إلى مكتبه. وتساءل في الطريق كيف يجب أن يفعل حتى يمثل أمام جوليان ماستاكوفتش؟ أليس في هذا إفراطًا في الجرأة منه؟ ودخل المكتب، فسأل وجلًا هل صاحب السعادة موجود. فقيل له إنه غير موجود، وإنه لن يأتي في هذا اليوم. فأراد أركادي إيفانوفتش في أول الأمر أن يذهب إلى منزله الخاص، ولكنه سرعان ما انتهى إلى أن جوليان ماستاكوفتش لا بد أن يكون مشغولًا في منزله ما دام قد تغيب عن المكتب. لذلك بقي أركادي في عمله... بدا له الوقت طويلًا طويلًا لا ينتهي. حاول أن يستطلع سرًا أمر العمل الذي عهد به إلى شومكوف، ولكن لم يكن أحد على علم بالموضوع. كل ما كانوا يعلمونه هو أن جوليان ماستاكوفتش شاء أن يكلفه ببعض الأعمال الخاصة فعلًا ولكن ما من أحد يعرف طبيعة هذه الأعمال التي أراد أن يكلفه بها. وفي حجرة المدخل أوقفه أحد الكتبة وقال له فاسيلي بتروفتش شومكوف قد جاء في نحو الساعة الواحدة وسأل عما إذا كان أركادي إيفانوفتش وجوليان ماستاكوفتش موجودان. فلما سمع أركادي هذا النبأ استأجر عربة وأسرع إلى المنزل قلقًا أشد القلق.

كان شومكوف هناك، يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وهو مهتاج اهتياجًا محمومًا، فلما ألقى نظرة على أركادي إيفانوفتش بدا عليه أنه هدأ، أو هو أسرع يخفي اهتياجه على الأقل. ومن دون أن يقول كلمة، جلس إلى مكتبه واستأنف الكتابة. كان يلوح عليه أنه يريد أن يتحاشى أسئلة صاحبه التي أصبحت تزعجه، إذ كان واضحًا أنه اتخذ قراره وآلى على نفسه أن يحتفظ به سرًا لا يفضي به إلى أحد، لأنه لا يعول على الصداقة ولا يثق بها. تأثر أركادي تأثرًا شديدًا. فجلس على السرير وفتح كتابًا (هو الكتاب الوحيد الذي يملكه)، دون أن يحوّل بصره عن فاسيا المسكين. وظل فاسيا صامتًا لا ينطق بكلمة. واستمر يكتب لا يرفع رأسه. وانقضت على ذلك عدة ساعات أصبحت آلام أركادي لا تطاق. وأخيرًا في نحو الساعة الحادية عشرة، رفع فاسيا رأسه وألقى على أركادي نظرة كابية جامدة. انتظر أركادي، غير أن عدة دقائق انقضت وفاسيا ما يزال صامتًا. صاح أركادي:

- فاسيا.

فلم يجب فاسيا. فعاد أركادي يردد وهو ينهض ببطء:

-فاسيا! ماذا بك؟ ماذا دهاك؟

كذلك صاح وهو يقترب من صديقه.

أنهض فاسيا رأسه ثانية، وحدّق إلى صاحبه من جديد بنظرة بلهاء جامدة.

قال أركادي لنفسه مذعورًا: «هذه نوبة عصبية!»، وأسرع يتناول إبريق الماء، ويُنهض رأس فاسيا، ويأخذ يصب على جمجمته ماء، ويبلل صدغيه، ويفرك يديه. فعاد فاسيا إلى وعيه.

صاح أركادي باكيًا، لأنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه:

- فاسيا، فاسيا، فاسيا، لا تدع لنفسك أن تهوي... تذكر... تذكر...

وأخذه بين ذراعيه قبل أن يتم جملته. كان في وجه فاسيا غم وقلق وألم. فرك فاسيا جبينه، ثم رفع يديه إلى رأسه كأنه يخشى على رأسه أن ينفجر. واستطاع أخيرًا أن يقول:

- لا أدري ما الذي بي. أظن أنني أجهدت نفسي. على كل حال، تحسنتُ الآن، تحسنت... هيا يا أركادي... لا تقلق... هيا (كذلك ردد وهو يرشق صديقه بنظرة حزينة).. لا داعي إلى القلق... فيم القلق؟

هتف أركادي نازف القلب من الرحمة:

- ما هذا؟ أأنت الذي تعزيني وتواسيني الآن؟ ارقد يا فاسيا... لا تعذب نفسك في ما لا طائل تحته. ستستأنف عملك بعد.

ردد فاسيا كلام صاحبه قائلًا:

- نعم نعم، أنت على حق. نعم، سأرقد. سأرقد. لقد قررت في أول الأمر أن أنجز العمل دفعة واحدة، أما الآن فقط غيرت رأيي.. نعم...

قاده أركادي إلى السرير. وقال له بصوت جازم:

- اسمع يا فاسيا، يجب أن تتخذ قرارًا حاسمًا بشأن هذه المسألة. قل لي ماذا قررت.

قال فاسيا وهو يحرك يده بإشارة ضعيفة ويميل برأسه:

- أواه...

- هيا يا فاسيا... يجب أن تتخذ قرارًا. لا أحب أن أكون قاتلك. لا أستطيع أن أسكت بعد الآن. أنا أعلم أنك لن تنام ما لم تتخذ قرارًا حاسمًا.

قال فاسيا بلهجة كأنها سر أو لغز:

- ليكن ما تريد ليكن ما تريد.

قال أركادي لنفسه: «لقد أذعن». وأردف يلح قائلًا:

- اتبع نصيحتي يا فاسيا. تذكر ما قلته لك. غدًا أنقذك، غدًا أقرر مصيرك... ولكن فيم الكلام على المصير؟ لقد بلغت من تخويفي يا فاسيا أنني صرت أستعمل تعابيرك. أي مصير هذا الذي تتكلم عليه؟ ما الأمر إلا ترهات يسيرة! أنت لا تريد ان تخسر عطف جوليان ماستاكوفتش أليس كذلك؟ طيب... لن تخسر عطفه... سوف ترى.. أنا..

كان يمكن أن يتكلم أركادي طويلًا أيضًا، ولكن فاسيا قاطعه، إنه ينهض عن مكانه، ويعانق أركادي، ويقبله. ثم يقول بصوت واهن ضعيف:

- كفى.. كفى.. لا تتكلم بعد الآن في هذه الأشياء!

ثم دار إلى جهة الحائط من جديد.

قال أركادي لنفسه: «يا رب! ماذا به يا رب! إنه خارج عن طوره تمامًا. ماذا قرر أن يفعل؟ لسوف يضيِّع نفسه!».

ونظر أركادي إلى صديقه في حسرة وأسى، ثم قال لنفسه: «لعل الأمور تنحل إذا هو مرض. إذا مرض فقد تزول همومه، ويكون في وسعنا أن ندير المسألة بعد ذلك على الوجه المناسب. ولكنني أهذر... آه... يا رب؟».

وفي تلك الأثناء، كان يبدو على فاسيا أنه ينام. فاغتبط أركادي من ذلك. قال فاسيا لنفسه: «هذه علامة طيبة». وقرر أن يسهر عليه طول الليل. كان نوم فاسيا مضطربًا، فهو في كل لحظة ينتفض، ويلتفت إلى الجهة الأخرى ويفتح عينيه، وغلبه التعب آخر الأمر، حتى بدا في نحو الساعة الثانية من الصباح أنه يغيب في نوم عميق. فنام عندئذ أركادي على كرسيه مسندًا ذراعه إلى المنضدة.

ورأى أركادي فيما يرى النائم حلمًا غريبًا مقلقًا. كان يتراءى له أنه غير نائم، وأن فاسيا ما يزال راقدًا على السرير. ولكن الأمر الغريب هو أنه كان يحس أن فاسيا يمثل تمثيلًا، وأنه يحاول أن يخدعه، فها هو ذا - أي فاسيا - ينهض عن سريره صامتًا ويتسلل نحو المكتب على رؤوس الأصابع مراقبًا صاحبه بطرف عينه.

شعر أركادي عندئذ بألم شديد يقبض قلبه. أحزنه وأشجاه أن يرى فاسيا لا يثق به بل يخفي عنه أفكاره. أراد أن يوقفه، أراد أن يزجره، أراد أن يرده إلى السرير عنوة... فإذا بفاسيا يطلق صرخة هي آخر زفرة من زفراته، وإذا بأركادي يحمل إلى السرير جثة ميتة لا إنسانًا حيًا. تبلل جبين أركادي بالعرق، وأخذ قلبه يخفق خفقانًا شديدًا حتى ليكاد ينفجر. فتح عينه فإذا هو يرى فاسيا جالس إلى المنضدة أمامه يكتب.

ظنَّ أركادي أنه ما يزال يحلم. نظر إلى السرير، فلم يجد عليه فاسيا. فنهض بوثبة واحدة وهو ما يزال تحت وطأة الكابوس الذي ألمَ به أثناء نومه. لم يتحرك فاسيا، بل ظل يكتب. وفجأة لاحظ أركادي، مذعورًا، أن صاحبه يجري على الورق ريشةً بغير حبر، وأنه يقلب صفحات بيضاء مسرعًا في ملء الصفحات إسراعًا رهيبًا، كأن هذا خير وسيلة لإنجاز العمل الذي يجب عليه أن ينجزه. قال أركادي إيفانوفتش لنفسه وهو يرتعش: «لا.. ليس هذا إلا نوبة عصبية».

هتف يقول وهو يمسك صديقه من كتفه:

- فاسيا، فاسيا، أجبني!

ولكن فاسيا ظل صامتًا لا يتكلم، وظل يرسم على الورق خطوطًا لا تُرى، بريشة من غير حبر.

قال فاسيا دون أن يرفع بصره:

- أخيرًا استطعت أن أعجل كتابتي.

أمسك أركادي يده، وانتزع منه الريشة.

أطلق فاسيا أنة ضعيفة. وتهاوت ذراعاه ورفع عينيه صوب أركادي. وحرّك جبينه بحركة حزينة كأنه يحاول أن يزيح ثقلًا ضخمًا يسحق كيانه كله. ثم خفض رأسه ببطء، شارد الذهن.

صاح أركادي:

- فاسيا! فاسيا!

انقضت لحظات قبل أن ينظر إليه فاسيا. كانت عيناه الزرقاوان تفيضان دموعًا، وكان وجهه الحلو يعبر عن عذاب لا يُغالب... وكان يتمتم ببعض كلام.

سأله أركادي وهو يميل عليه:

- ماذا؟ ماذا؟

فهمس فاسيا يقول:

- لماذا يحقدون عليَّ؟ ماذا صنعت بهم؟

صاح أركادي وهو يعقف ذراعيه بحركة يائسة:

- ما بك يا فاسيا؟ مم تخشى؟

قال فاسيا وهو يحدق إلى عيني صديقه:

- لماذا يريدون أن يجندوني؟ لماذا؟ ما هي جريمتي؟

انتصب شعر أركادي على رأسه. لم يشأ أن يصدق أذنيه. ظل مائلًا على صديقه وقد استبد به يأس رهيب شديد.

ثم ثاب إلى رشده بعد دقيقة فقال لنفسه: «ليس هذا إلا عرَضًا طارئًا ثم ينقضي». قال لنفسه ذلك وقد اصفر وجهه وارتجفت شفتاه، وأسرع يرتدي ثيابه كالمحموم، لأنه يريد أن يركض باحثًا عن طبيب. ناداه فاسيا فجأة. فهرع إليه، وقبله قبلة أمٍ يريدون أن ينتزعوا منها ابنها...

- أركادي... أركادي... أرجوك خاصة أن لا تبلغ أحدًا... هل تفهمني؟ إن الذنب ذنبي... فيجب أن أتحمل نتائجه وحدي.

هيا يا فاسيا، هيا ثب إلى رشدك، عد إلى نفسك، ابرأ مما بك! تنهد فاسيا، وأخذت عبرات صامتة تسيل على خديه.

- لماذا نقتلها هي؟ هي المسكينة؟.. إنها خطيئتي أنا... خطيئتي أنا!

كذلك قال فاسيا بصوت مخنوق يمزق القلب حزنًا.

وصمت بضع لحظات. ثم همس يقول وهو يهز رأسه المسكين:

- الوداع يا حبيبتي، الوداع يا حبيبتي!

ثاب أركادي إلى نفسه، وأراد أن يركض إلى الطبيب، فلما لاحظ فاسيا حركة صاحبه قال:

- هيا بنا.. لقد آن الأوان.. هيا بنا يا صاحبي... أنا مستعد. اصحبني.

ثم لم يقل شيئًا، بل ألقى على أركادي نظرة حزينة مرتابة.

قال أركادي يكرر فاقدًا صوابه، وهو يتناول قبعة ليمضي باحثًا عن الطبيب:

- فاسيا... لا تتبعني... أرجوك.. أتوسل إليك.. انتظرني هنا. سأعود حالًا.

فلم يلبث فاسيا أن قعد. كان يبدو وديعًا طبعًا، ولكن قرارًا يائسا كان يسطع في نظرته. عاد أركادي أدراجه، فأخذ الموسى التي كانت مسلولة على المنضدة، وألقى نظرةً أخيرة على صديقه المسكين، ثم أسرع يخرجُ راكضًا.

كانت الساعة قريبة من الثامنة وكان ضوء النهار قد أخذ ينير الغرفة منذ وقت.

لم يجد أركادي أحدًا. طاف المدينة ساعة بكاملها، ولكن جميع الأطباء الذين عرف عناوينهم من البوابين الذين يسألهم كانوا قد خرجوا، بعضهم إلى دوائرهم، وبعضهم إلى أعمالهم، غير أن واحدًا من الأطباء كان قد أخذ يستقبل مرضاه، سأل الطبيب خادمه طويلًا عن نيفيديفتش: من أرسله ولأي غرض جاء، حتى لقد أراد أن يوصف له هذا الزائر المبكر. ثم صرح أخيرًا بأن أعماله كثيرة، فلا يستطيع الذهاب إلى المريض، وبأن المرضى الذين هم في هذا الوضع يجب نقلهم إلى المستشفى.

فحزن أركادي أشد الحزن، لأنه لم يكن يتوقع حلًا كهذا الحل فاستغنى عن الطب والأطباء، واندفع راجعًا إلى المنزل يرتجف خوفًا على فاسيا، ودخل البيت راكضًا. كانت مافرا تكسر حطبًا لإشعال المدفأة كأن شيئًا لم يحدث. فلما صار أركادي في الغرفة لم يجد فاسيا. كان فاسيا قد خرج.

تساءل أركادي متجمدًا من الذعر: «أين هو المسكين؟ إلى أين يمكن أن يكون قد ذهب؟...». وأخذ يسأل مافرا. لكن المرأة الطيبة لا تعلم شيئًا، بل إنها لم تسمع خطواته حين خرج. هرع نيفيديفتش يذهب إلى جماعة كولومنا. الله يعلم لماذا خطر بباله أنه قد يجد فاسيا هناك.

وصل إليهم في نحو الساعة التاسعة والنصف، وكانوا جاهلين بكل شيء. كان أركادي يسألهم عما إذا كان فاسيا عندهم، وقد لاح عليه التردد والهلع.

كادت العجوز تتهاوى، فجلست على الأريكة، وأخذت ليزانكا تسأله مرتجفة من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. ولكن ماذا كان يستطيع أركادي أن يقول؟ ها هو ذا يلفق قصة لم يشأ أحد أن يصدقها طبعًا. ثم انصرف كما جاء، تاركًا أهل الدار في حزن شديد وقلق عظيم. أسرع إلى مكتبه حتى لا يصل متأخرًا عن الميعاد تأخرًا كبيرًا. وخطر على باله أثناء الطريق أن فاسيا قد يكون عند جوليان ماستاكوفتش. هذا جائز حتى لقد فكر أركادي في ذلك قبل أن يذهب إلى كولومنا. فلما وصل بالعربة أمام منزل صاحب السعادة أراد أن يتوقف، ولكنه سرعان ما غيَّر رأيه وتابع طريقه. لقد قرر أن يستطلع الأمر في المكتب أولًا، فإذا لم يطلع هنالك على شيء، عاد يمثل

أمام صاحب السعادة، ليبلغه ما حدث لفاسيا في أقل تقدير. ذلك أنه لا بد من تقديم تقرير لأحد.

فما إن صار في حجرة المدخل حتى رأى زملاءه يحيطون به ويتجمعون حوله، وأكثرهم من رتبته، يسألونه عما جرى لفاسيا وأبلغوه جميعًا في الوقت نفسه أن فاسيا أصبح مجنونًا، وأن قوام جنونه اعتقاده بأنه سيجند في فرقة تأديبية من الجيش لإهماله عمله.

أجاب أركادي إيفانوفتش جميع الناس، أو قل إنه لم يجب أحدًا بعينه فإنه لم يكن يريد إلا شيئًا واحدًا هو أن يدخل المكاتب. فلما طاف بمختلف الدوائر عرف أن فاسيا موجود عند جوليان ماستاكوفتش، وأن كثيرًا من الموظفين هناك، وأن إسبر إيفانوفتش قد ذهب إلى هناك أيضًا. وسأله واحد من كباء الموظفين إلى أين هو ذاهب وماذا يريد فنطق ببضع كلمات ذاكرًا اسم فاسيا، واتجه رأساً إلى غرفة الرئيس الكبير. كان صوت جوليان ماستاكوفتش يصل إلى سمعه. سأله أحدهم أمام الباب:

- إلى أين أنت ذاهب؟

وبينما يتهيأ لأن يرجع القهقرى، إذا هو يلمح فاسيا المسكين من خلال الباب المشقوق، فلا يسعه إلا أن يدفع المصراع، فيتسلل إلى الغرفة بغير قليل من العناء. كان جو مضطرب يسيطر على الغرفة. إن جوليان ماستاكوفتش يبدو منزعجًا أشد الانزعاج، يحيط به جميع أصحاب الرتب العالية من الموظفين، وهم جميعًا يتناقشون ثم لا يصلون إلى إتخاذ قرار. وكان فاسيا منتحيًا جانبًا. انقبض صدر أركادي حين رآه على هذا الحال كان فاسيا أبيض الوجه من فرط الشحوب، منتصب القامة رافع الرأس مشدود الساقين مسبلًا ذراعيه وقد ألصقهما إلى الفخذين، تمامًا كما يفعل المجندون أمام رئيسهم. وكان شاخصًا ببصره إلى عيني جوليان ماستاكوفتش. وسرعان ما لوحظ وجود نيفيديفتش. فإذا بواحد يجهل أن الصديقين يسكنان معًا، يقترب من صاحب السعادة فيلفت نظره إلى وجوده. فاقتيد أركادي إلى الرئيس. وفيما كان أركادي يتهيأ للإجابة على الأسئلة التي يطرحها عليه جوليان ماستاكوفتش، نظر إلى وجهه فلاحظ أنه يعبر عن تأثر وعطف صادق، فإذا هو يشعر بقشعريرة، ثم إذا به يأخذ يبكي منتحبًا كالطفل. بل لقد فعل تسري في جسمه أكثر من ذلك وثب نحو الرئيس الكبير، فتناول يده وحملها إلى شفتيه يقبلها ويغرقها بالدموع. ما اضطر جوليان ماستاكوفتش نفسه أن يسحب يده بسرعة، ويقول: «هيا يا عزيزي هيا... أرى أن لك قلبًا طيبًا». كان أركادي ينتحب ويرشق الحضور بنظرات متوسلة ضارعة. كان يبدو له أنهم جميعًا كإخوة لصديقه المسكين فاسيا، وأنهم جميعًا متألمون لحاله، حزانى عليه.

سأله جوليان ماستاكوفتش قائلا:

- ولكن كيف حدث له هذا؟ لماذا أصبح مجنونًا؟

فدمدم أركادي يقول:

- آه... اعترافا بالجميل.

ثم لم يستطع أن يزيد على ذلك شيئًا.

دهش جميع الحضور حين سمعوا هذا الجواب، ووجدوا أنه أمر غريب بل عجيب أن يفقد إنسان عقله اعترافًا بالجميل، وشرح أركادي القضية كما استطاع.

قال جوليان ماستاكوفتش أخيرًا:

- مسكين... مع أن الأمر الذي عهدت به إليه لم يكن لا هامًا ولا مستعجلًا! هذا إنسان ضاع في سبيل لا شيء... طيب... خذوه.

واتجه جوليان ماستاكوفتش بالكلام بعد ذلك إلى أركادي فألقى عليه بعض الأسئلة.

قال مشيرًا إلى فاسيا:

- هو يرجو أن لا يذكر من الأمر شيء لإحدى الفتيات، فهل هي خطيبته؟

فقدم أركادي بعض الإيضاحات وكان فاسيا أثناء ذلك يبدو فريسة فكرة تحاصر ذهنه، كان يبذل جهدًا كبيرًا من أجل أن يتذكر شيئاً خطير الشأن، بل لا بد ولا غنى في هذه اللحظة. وكان في بعض الأحيان يطوف ببصره على الحضور كأنه يأمل أن يسعفه أحدهم فيذكره بما كان يحاول أن يتذكره. وتوقفت نظراته على أركادي. فإذا بشعاع من أمل ينير وجهه فجأة. وإذا هو يتقدم إلى الأمام خطوة بقدمه اليسرى، ثم يسير بضع خطوات سيرًا عسكريًا، لا يفوته حتى أن يقرع الأرض بكعب قدمه اليمنى كما يفعل الجنود حين يقتربون من ضابط ناداهم فأخذ الجمع ينتظر ما سيعقب ذلك. قال فاسيا بصوت متقطع:

- يا صاحب السعادة، إن بي عاهة جسمية، فأنا ضعيف وقصير القامة ولا أصلح للخدمة العسكرية.

فشعر جميع من في الغرفة بانقباض في قلوبهم، حتى أن جوليان ماستاكوفتش نفسه لم يملك أن يحبس دمعة سالت من عينيه رغم صلابة طبعه وقوة إرادته. قال وهو يشير بيده:

- خذوه...

قال فاسيا بصوت خافت

- إلى الجبهة...

ثم استدار إلى الوراء يسرة. وخرج من الغرفة.

أسرع جميع من يهمهم مصيره يجرون وراءه. وتبع أركادي الآخرين. أُجلس فاسيا في قاعة الانتظار، وأخذ المختصون يعدون أمرًا بقبوله في المستشفى، ويسألون عن العربة التي ستحمله إليه.

إن فاسيا صامت لا يتكلم. إنه يبدو مشغول البال إلى أقصى حد. وهو يحيي جميع من يعرفهم بانحناءة يسيرة كأنه يودعهم، وينظر إلى الباب في كل لحظة منتظرًا أن

يُقال له: آن أوان الانصراف. إن حلقة ضيقة من الناس تحيط به وهم جميعًا يهزون رؤوسهم حسرة، ويرثون لحاله، ويحزنون لما آل إليه. وما أكثر الذين تأثروا أشد التأثر لقصته التي شاعت في المكتب كله فجأة... فبعضهم يناقش الأمر، وبعضهم يمدح فاسيا ويعبر عن أساه. قالوا إنه كان فتى هادئًا متواضعًا يعد بمستقبل مشرق. وقالوا إنه كان يحرص على الاستزادة من العلم وكان يعمل جاهدًا في سبيل استكمال ثقافته. وقال أحدهم: «إنه بوسائله وحدها إنما استطاع أن يخرج من ظرف وضيع جدًّا». وأشاروا بكثير من الحنان إلى العطف الذي كان يحمله له صاحب السعادة وأخذ بعضهم يشرح لماذا تحاصر ذهن فاسيا فكرة زجِّه في الجيش عِقابًا له على عدم إنجازه عمله. قالوا إن الفتى ينتمي في أصله إلى طبقة الأقنان، وإن الفضل في وصوله إلى الحصول على رتبة موظف إنما يرجع إلى جوليان ماستاكوفتش وحده. ذلك أن جوليان ماستاكوفتش قد رأى فيه علائم موهبة حقيقية، كما رأى فيه طواعية كاملة، وأدبًا جمًّا... الخلاصة أنهم تكلموا كثيرًا وتناقشوا طويلًا. وكان من أكثر الناس تأثرًا رجل طيب قصير القامة جدًّا، أقصر كثيرًا من متوسط طول الرجال، إنه أحد زملاء فاسيا، وما هو الآن فتى في ريعان الشباب. فلعله بلغ الثلاثين من عمره. كان شاحب الوجه كميت، كانت أعضاؤه جميعها تختلج، وكان يبتسم إبتسامةً غريبة... ربما لأن أي حادث رهيب أو أي أمر فاضح يمكن أن يملأ قلوب شهوده خوفًا شديدًا ولذة في آن واحد. كان الرجل القصير يركض بين الجماعة التي تزدحم حول فاسيا من من هذا الجانب إلى هذا الجانب، وكان لقصره ينتصب على رؤوس الأصابع، متشبثًا بزر هذا أو ذاك من زملائه (الذين كان يحق له أن يقاربهم)، وما ينفك يردد أنه يعرف كيف وقع ما وقع، غير أن الأمر معقد، ولا يمكن ترك الأمور على ما هي عليه. وانتصب على رؤوس أصابعه مرة أخرى فهمس في أذن أحدهم ببعض الكلام، ثم هز رأسه عدة مرات، ومضى يهرول إلى مكان آخر.

وانتهى أخيرًا كل شيء: جاء الحارس والممرض. فاقتربا من فاسيا، وقالا له إن أوان الانصراف قد آن. فنهض فاسيا ببطء، واضطرب بعض الاضطراب، ومضى يتبعهما ناظرًا حوله. كان يبحث عن أحد. هتف أركادي باكيًا ناشجًا: «فاسيا، فاسيا!» فتوقف فاسيا. واستطاع أركادي أن يشق لنفسه طريقًا إلى صاحبه. فتعانق الصديقان آخر عناق... كان منظرًا محزنًا يمزق القلب. أية نازلة وهمية كانت تُسيل عبراتهما؟ لماذا كانا يبكيان؟ أين هي تلك النازلة؟ لماذا لم يستطيعا أن يتفاهما؟

قال فاسيا لصاحبه وهو يدس في يده ورقة مطوية:

- خذ.. خذ هذه.. خذ هذه... احتفظ لي بها، وإلّا أخذوها مني. جئني بها بعد. جئني بها. احتفظ لي بها.

ولم يستطع فاسيا أن يكمل كلامه. فقد نوديَّ. فهبط السلم مسرعًا وهو يحيي الناس ويحني رأسه. إن ألمًا قاتلًا كان يرتسم في وجهه، ووضِّع في العربة أخيرًا، وسارت العربة.

فض أركادي الورقة على عجل. إنها الخصلة السوداء من شعر ليزا، التي كان يحملها فاسيا دائمًا معه. انبجست دموع مرة أخرى من عيني أركادي، وتمتم يقول:

«مسكينة أنت يا ليزا».

فلما انصرف الموظفون ذهب أركادي إلى جماعة كولومنا. لا داعي إلى وصف ما جرى هنالك! حتى الصغير بتيا، الذي لم يفهم كثيرًا ما وقع لفاسيا الطيب انزوى في ركن وغطى وجهه بيديه وطفق يبكي بكاء يمزق القلب.

كان الليل قد أخذ يهبط حين سار أركادي في طريق العودة إلى البيت. فلما وصل إلى ضفة نهر نيفا، توقف لحظة، حدق إلى الأفق البعيد عند منحدر النهر. هنالك، كان الهواء الكثيف والضباب البارد الكابي يلتهبان فجأة بأواخر الشعل من أول الغروب. كان الليل يهبط على المدينة. وكانت صفحة الماء المتجلدة المحدودبة المخلدة بحلقات من ثلج قاسٍ تعكس على كل امتدادها الواسع أواخر أشعة الشمس الغاربة تراقصًا متلألئًا على صفائح الجليد التي لا يحصى عددها.

كانت درجة الحرارة قد هبطت إلى العشرين تحت الصفر... إن بخارًا أبيض يحيط بالخيول المتوقفة عجزًا عن متابعة السير، وبالناس الماشين بخطى سريعة. والهواء الكثيف يرجع أيسر صوت. وفوق سطوح جميع المنازل المصطفة على الأرصفة تتصاعد في السماء الباردة أعمدة عالية من دخان، يختلط بعضها ببعض، ثم يفترق بعضها عن بعض. لكأن مباني أخرى كانت تنبثق في الجو فتشكل مدينة جديدة فوق المدينة القديمة، كان العالم - بجميع ساكنيه، الأقوياء منهم والضعفاء، وبجميع مساكنه، أكواخ الفقراء منها وقصور العظماء على هذه الأرض -. كان هذا العالم كله يبدو في تلك الساعة من المساء أشبه بسراب عجيب، أشبه بحلم مصيره إلى الزوال هو أيضًا، مصيره إلى أن يتبخر دخانًا في السماء الزرقاء الداكنة.

وهذه فكرة غريبة تنبثق فجأة في ذهن رفيق المسكين فاسيا، في ذهن الرفيق الذي أصبح الآن وحيدًا. ارتعش أركادي. كأن دمًا أشد حرارة يتدفق الآن إلى قلبه، تحركه عاطفة قوية لم يعرفها قبل اليوم. لقد بدا أنه يفهم الآن كل ذلك القلق الذي دفع فاسيا إلى الجنون، ويدرك السبب الذي جعل فاسيا يفقد عقله من عجزه عن احتمال سعادته. اختلجت شفتا أركادي، وسطع لهيب في عينيه... واصفر وجهه، وشعر أنه عرف فجأة، في هذه اللحظة نفسها، حقيقة جديدة.

أصبح أركادي حزين النفس متجهم الطبع. فقد مرحه القديم. كره منزله، فاتخذ لنفسه سكنًا آخر. ولم يُطق أن يذهب بعدئذ إلى جماعة كولومنا، وبعد سنتين صادف ليزانكا في الكنيسة. كانت الفتاة قد تزوجت، هذه مرضعة تسير وراءها حاملة على ذراعيها طفلًا صغيرًا. حياها وحيته، ولكنهما تجنبا الحديث عن الماضي. قالت ليزا إنها سعيدة ولله الحمد، وأن العسر قد زال عنها، وأن زوجها رجل طيب شهم، وأنه يحبها... ولكن عينيها فاضتا بالدموع فجأة قبل أن تكمل جملتها، وتحطم صوتها، فحولت وجهها ومالت على عمود من أعمدة الكنيسة تخفي ألمها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

**(تمت بحمد الله وتوفيقه)**

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK


متميزون
للكتب النصية
E-Book

**Group Link – لينك الانضمام الى الجروب**

**Link – لينك القنـــــاة**

# Notes

[←1]

ليزا، ليزانكا هما تصغير اسم ليزافتا (إليزابت)

[←2]

جوليان ماستاكوفتش هو رئيس المكتب الذي يعمل فيه فاسيا، وقد اشتق دوستويفسكي اسم ماستاكوفتش من كلمة ماستاك الروسية ومعناها الرجل الحاذق الماكر إشارة إلى طبع هذه الشخصية.

[←3]

«بطرسبرجسكايا ستورونا» حي في شمال نهر نيفا.

[←4]

«كولومنا» ضاحية في الجنوب الشرقي من العاصمة.

[←5]

«مانون ليسكو» بطلة الراوية الشهيرة التي كتبها الكاهن بريفو وقد ظهرت سنة 1731 وترجمت إلى الروسية وأصابت نجاحًا كبيرًا.